

الجامعة الأميركية في بيروت

# الاتجاهات الأدبية

في العالم العربي الحديث

الجزء الأول

أنيس الخوري المقدسي





# الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث

شبكة كتب الشيعة

وهي دراسات تحليلية للعوامل الفعالة في النهضة العربية الحديثة  
ولظواهرها الأدبية الرئيسية



shiabooks.net

رابط يديل < niktba.net

أنيس النخوري المقدسي

استاذ الادب العربي في جامعة بيروت الاميركية  
وعضو المجمع العلمي العربي

الطبعة الاولى



## الجزء الاول

ويتناول بقظة الشعور القومي في العالم العربي منذ اواخر الحكم  
العثماني حتى عهدنا الاستقلالي الاخير الذي تم فيه انشاء  
جامعة للدول العربية تتولى النظر في شؤونهم  
العامة والدفاع عن مصالحهم المشتركة .  
وما حرك ذلك في نفوسهم من  
خوارج نثرية وشعرية .



جَامِعَةُ بَيْرُوتِ الْأَمِيرِكِيَّةِ

مَنْشُورَاتُ كَلِيَّةِ الْعُلُومِ وَالْأَدَبِ



سِلْسِلَةُ الْعُلُومِ الشَّرْقِيَّةِ :

الحلقة الخامسة والعشرون

# سِلْسِلَةُ الْعُلُومِ الشَّرْقِيَّةِ

- (١) - (٣) مجموعة الاصول العربية لتاريخ سوريا في عهد محمد علي باشا  
للدكتور اسد رستم المجلدات الاول والثاني والخامس . سنة ١٩٣٠-١٩٣٣
- (٤) امراء غسان لثودور نولدكه . ترجمة الاستاذين بندلي جوزي  
وقسطنطين زريق سنة ١٩٣٣
- (٥) مجموعة الاصول العربية . . . . المجلدان ( الثالث والرابع ) . سنة ١٩٣٤
- (٦) اليزيدية قديماً وحديثاً للامير اسماعيل جول  
نشره الدكتور قسطنطين زريق سنة ١٩٣٤
- (٧) عمر ابن ابي ربيعة للاستاذ جبرائيل جبور . الجزء الاول : عصره  
سنة ١٩٣٥
- (٨) اسباب الحملة المصرية على سوريا كما تظهر في سجلات عابدين الملكية  
للدكتور اسد رستم سنة ١٩٣٦
- (٩) تاريخ ابن الفرات : لناصر الدين محمد ابن عبد الرحيم ابن الفرات  
المجلد التاسع ، الجزء الاول . نشره الدكتور قسطنطين زريق سنة ١٩٣٦
- (١٠) تاريخ ابن الفرات : المجلد التاسع ، الجزء الثاني . حققه وضبط نصه  
الدكتور قسطنطين زريق والدكتور نجلا عز الدين سنة ١٩٣٨
- (١١) الاضطرابات في فلسطين سنة ١٨٣٤ كما تظهر في سجلات عابدين الملكية  
للدكتور اسد رستم سنة ١٩٣٨
- (١٢) ديوان ابن الساعاتي . نشره الاستاذ انيس المقدسي . الجزء الاول سنة ١٩٣٨
- (١٣) عمر ابن ابي ربيعة : للاستاذ جبرائيل جبور . الجزء الثاني : حياته  
سنة ١٩٣٩
- (١٤) تاريخ ابن الفرات : المجلد الثامن . حققه وضبط نصه الدكتور  
قسطنطين زريق والدكتور نجلا عز الدين سنة ١٩٣٩
- (١٥) العوامل الفعالة في الادب العربي الحديث للاستاذ انيس المقدسي  
سنة ١٩٣٩
- (١٦) ديوان ابن الساعاتي . نشره الاستاذ انيس المقدسي . الجزء الثاني  
سنة ١٩٣٩
- (١٧) تاريخ ابن الفرات : المجلد السابع . حققه وضبط نصه  
الدكتور قسطنطين زريق سنة ١٩٤٢
- (١٨) الكواكب السائرة باعيان المئة العاشرة . الجزء الاول  
حققه وضبط نصه الدكتور جبرائيل جبور سنة ١٩٤٥
- (١٩) معجم الالفاظ العامية في اللهجات اللبنانية للدكتور انيس فريجه  
سنة ١٩٤٧
- (٢٠) الكواكب السائرة الجزء الثاني حققه الدكتور جبرائيل جبور  
سنة ١٩٤٩



## الى القراء

هذه محاولة جديدة في درس الادب الحديث يراد بها تحليل العناصر المختلفة التي يتألف منها جوّنا الادبي والرجوع الى الاسباب التي اثارّت امواجه العاطفية والفكرية. وهي محاولة شاقة فالباحث الرائد لا يرى حوله الا ادغالاً مشتبكة لا طرق معبّدة فيها ولا معالم واضحة . وقد كابد المؤلف من ذلك ما لا يعرفه الا زملاؤه من رواد هذه المباحث وكانت مهمته ان يقرأ آثار النهضة الادبية الحديثة - غثها وسمينها - المشهور وغير المشهور منها ثم ينظّم من ذلك كله ما يعكس التطورات الاجتماعية والسياسية والفكرية ويقابله بما ورد من اقوال الباحثين السابقين وما تثبّته من احاديث المعاصرين فضلاً عما عرفه باختباره وكان له اثره الخاص في نفسه .

وقد تمهّل له في هذا السبيل شيء كثير من مطبوع ومخطوط ومن مؤلفات منشورة واوراق خاصة . بيد انّ ذلك لم يظهر منه في كتب المراجع الا ما اعتمده مباشرة لشاهد او عبارة مقتبسة وهو لا يزيد عن نصف ما دعت الحاجة الى مراجعته .

وبما لا بد من ذكره ان معظم الفصول الواقعة تحت باب « الاتجاه القومي » كانت قد نشرت حلقات متتابعة في المجلدين الثالث والتسعين والرابع والتسعين من مجلة المقتطف بعنوان العوامل الفعالة في الادب العربي الحديث . وقد تكرم رئيس تحريرها يومئذ بكلمة في هذه الفصول تثبت منها الفقرة التالية : « ومن بواعث اغتباط المقتطف ان اتيح له نشر هذه الفصول النفيسة الممتازة بالتقصي الدقيق والانصاف والتحليل العلمي والتاريخي ووصف تقلب الحالة النفسية في الشعوب العربية خلال الفترة التي تناولها ولا يخفى على القارئ المتبصر ما تكبده الاستاذ المقدسي من مشقة في مراجعة الصحف والمجلات لاستخراج ما نشر فيها من انباء النهضة القومية العربية في شتى مراحلها وما قيل فيها من الشعر ثم في مراجعة الدواوين العربية التي طبعت ونشرت في مصر

وسوريا ولبنان والعراق والمهاجر الاميركية فجاءت هذه الفصول « ديوان النهضة العربية » او هي مهدت الطريق لوضع هذا الديوان .

وها نحن نقدم للذين يعنون بشؤون الادب العربي والنهضة الحديثة هذه الدراسات ولا ندعي انها بلغت الغاية في هذا السبيل وانما نرجو ان تكون وسيلة يستطيع بها طلاب العلم والراغبون في البحث ان ينظروا في ادبنا الحديث نظراً منطقياً وان يتفهموا خوالج العرب في هذا القرن وبواعثها الحقيقية .

ا.خ.م.

بيروت - 

# نوط

## في الثابت والمتجدد في الادب

في الادب عنصران مختلفان : عنصر الثبوت وعنصر التجدد . ونعني بالثبوت تلك الخاصة التي تضمن للادب خلوده من جيل الى جيل . خذ مثلاً روائع القدماء فاننا لا نزال نتناشدها الى الآن ونحن نشعر بروعتها وتأثيرها كما شعر الذين قبلنا وسيقرأها من بعدنا ويشعرون بها شعورنا وشعور الناس في كل زمان ومكان . وما ذلك إلا لان فيها جمالاً ثابتاً مع الاجيال هو سرّ خلودها وهو الذي يحدو اهل الثقافة عند كل الامم الى مطالعة روائعهم القديمة والتمتع بها .

وها نحن ابناء العربية في القرن العشرين على بعد عهدنا عن عهد امرئ القيس وزهير وعمر بن ابي ربيعة وابي نواس وابي تمام والمنتبي والبحتري والمعرّي ومن في طبقتهم من الشعراء ترانا نردد الكثير من اقوالهم ونحمل النشء الجديد على تدارسه وحفظه . ومن منا يستجيز لنفسه ان يقول ان تقادم العهد قد ذهب بهذه الروعة الحبية المتجسمة مثلاً في رائية عمر اذ نراه واقفاً عند المساء على شرفة وادٍ وهو يراقب من بعيد مخيم القبيلة التي تقيم فيها فتاته . ثم نسمعه يقول :

وبتّ اناجي النفس ابن خباؤها      وكيف لما آتني من الامر مصدر  
فدل عليها القلب ربّاً عرفتها      لها وهوى النفس الذي كاد يظهر

في هذه الكلمات التي تصور لنا الحب هادياً حين لا هادي سواه والتي تحمل الينا من الحبيب طيب ربّاه نغم يطربنا وجمال يحلو لنا كلما قرأناها او سمعناها . وذلك نفس ما يعترينا عندما نسمع العباس بن الاحنف يخاطب سرب القطا بلسان الواجد المشتاق :

بكبتُ على سرب القطا اذ مرّون بي      فقلتُ ومثلي بالبكاء جديرُ  
أسرب القطا هل من يعير جناحه      لهلي الى من قد هويت اطيرو

وهوذا المتنبي يقرأ سفر الحياة وينقل لنا منه بقلمه الفتان ما يجرّك النفوس ويهز الوجدان . فلا غرابة ان تصبح اقواله على السنة الناس حتى اذا احتاجوا الى ما يشحذ همّهم وبوقظ عزائمهم قالوا :

ذريني انل ما لا ينال من العلى فصعب العلى في الصعب والسهل في السهل  
تريدين لقيان المعالي رخيصةً ولا بد دون الشهد من إبر النحل  
وقبله غاص ابوقام على المعاني الفخمة وانشدها للناس في انغام رائعة . واي اديب  
اليوم يقرأ ابياته التالية ولا تعتريه هزة المغامر الذي لا يبالى في سبيل العلى بالاھوال  
والمخاطر :

ولكنني لم احو وفرأ مجمعاً ففزتُ به الا بشلٍ مبدّد  
ولم تعطني الايام نوماً مسكناً الذّ به الا بنوم مشرّد  
وطول مقام المرء في الحى مخلق لدياجتيه فاغترب تتجدد  
فاني رايت الشمس زيدت محبةً الى الناس ان ليست عليهم بسرمد

وما يصدق على هذه الامثلة القليلة يصدق على المئات من الروائع القديمة . ولن  
يكون الادب ادباً عالياً ما لم تكن فيه هذه الروعة الخالدة التأثير مهما بعد مكانها او  
زمانها اذ هي قائمة على اسس نفسية ثابتة يشترك فيها جميع الاحياء العاقلة .  
على ان ثبوت الروعة الادبية لا ينفي ان يكون في الادب عنصر آخر هو عنصر  
التغيّر او التجدد . ونعني به تلك النزعة الى التطور والسير في مسالك جديدة . فالادب  
مرآة يعكس لنا الحياة والطبيعة وما يثيرانه في النفس البشرية من خوالج وافكار .  
وبديهيّ ان الطبيعة الجامدة قلما يمسه هذا التطور المستمر . فالبحر والجبل والروض  
والوادي والمطر والغابة والصحراء وسواها من المشاهد الطبيعية هي منذ اقدم  
الازمنة الى الآن وقد عرفها الانسان القديم كما عرفها الحديث وانما يتفاوتان في التقرب  
منها والنظر اليها والتلطف بمناجاتها وفهم آياتها .

اما الحياة الانسانية او البيئة العمرانية فسريرة التطور لا تستقر على شكل واحد  
او نظام واحد . ومن البين ان اختبار الانسان في القرن العشرين غير اختباره في  
القرون الغابرة وان الحياة في لندن ونيويورك وباريس غيرها في بادية نجد او غابات  
السودان او نجود تيب . وعلى تقدم الانسان في الاختبار تقوم النهضة العمرانية

وبها يحصل هذا التطور المطرد في المجتمع البشري . وهذه النهضة تنعكس لنا في آداب كل الامم على اختلاف احوالها ودرجات ارتقاها .

فالادب من هذه الناحية متطور متغير لانه يعكس لنا العوامل الفعالة في النهضة العمرانية السائرة في سبيل التطور العام . وعلى ذلك نرى في آداب العصور المختلفة ظواهر ينفرد بها عصر دون عصر كما ينفرد مثلاً العصر الجاهلي عن العصر العباسي او الاندلسي . ومن هنا منشأ هذا الاختلاف بين القديم والجديد .

ومهما كان الادب وجدانياً او شخصياً فانه لا ينحصر في ذات صاحبه ويبقى هناك معزل عن كل الحركات الفكرية والاجتماعية التي تنشأ في بيئته وتمس حياته . وليس الاديب دودة الحرير التي تنسج حول نفسها قبراً ترقد فيه بل هو لوحة حساسة يرسم عليها ما يحيط به من مؤثرات فتمتزج بنفسه ثم تظهر للناس رسوماً ذات روعة وتأثير . والذي لا ينكر ان عصرنا الحاضر قد دخله من اسباب العمران ما باعد جداً ما بينه وبين العصور السالفة . اعتبر ذلك في شتى المبادئ السياسية التي طغت علينا من وراء البحر وتلك الانقلابات الاقتصادية والاجتماعية التي اقتضاها تقدم العلم والتوسع التجاري والاحتكاك بالامم الغربية . كل ذلك قد ادى الى تطور في البيئة العربية وبالتالي الى توجيه الادب العربي نحو اهداف وفي اساليب لم تنهأ في البيئة القديمة او في الادب القديم . وسندرس ذلك تحت الابواب التالية .

١ - الاتجاه القومي - وهو يعبر عن وعي عام في البلدان العربية ويبحث في العوامل

السياسية الخارجية والداخلية وما اثارت من شعور قومي وحركات وطنية

٢ - الاتجاه الاجتماعي - اي نحو الحياة العامة . ويتناول الشعب ومشاكله المختلفة واثار الحياة الجديدة فيه .

٣ - الاتجاه الطبيعي - وفيه نرى نزعة الادب نحو الطبيعة والحياة الريفية .

٤ - الاتجاه الروحي - او ما يظهر في الادب من تطور في النظر الى الحياة ومن ميل الى التأمل في المجردات .

٥ - الاتجاه الفني - وهو عرض عام لما في الادب الحديث من ظواهر التجديد في الاسلوب والاخراج .

## الاتجاه القوي<sup>(١)</sup>

تضارب النزعات ابّان الحكم العثماني في عهد عبد الحميد الثاني  
 الحوارج العائمة في العهد الدستوري  
 النهضة العربية القومية واثرها في نفوس العرب  
 المشادة بين الانتداب والقومية  
 الاتجاه نحو الاتحاد العربي

(١) ذكرنا آنفاً ان هذا القسم من الكتاب قد نشرت فصوله في المقتطف ٩٣ و٩٤ ثم جمعت في كتاب واحد تحت عنوان العوامل الفعالة في الادب ونحن هنا نعيدته متحماً ومنقحاً.

## تضارب

# النزعات الادبية

في عهد السلطان العثماني عبد الحميد الثاني

﴿الرابطة العثمانية﴾ ظلت تركيا الى عهد قريب سيدة الامم العربية من الناحية السياسية ، وظلت عاصمتها الاستانة مقرّ سلطنة متوامية الاطراف ، وخلافة دينية واسعة النفوذ .

وبرغم ما بلغته في اواخر عهدها من فساد اداري واختلال اقتصادي ، وبرغم الدعايات<sup>(١)</sup> الواسعة التي كانت تقوم بها الدول الاوربية ، واخصّها روسيا القيصرية وبريطانيا وفرنسا والمانيا والنمسا ، لا ترى في الشرق العربي منذ ايام ابراهيم باشا المصري حتى اواخر القرن التاسع عشر حركة جدية للانفصال عن السلطنة العثمانية والاستقلال بكيان سياسي منظم . ولم يكن لقطر عربي من الاسباب الممهدة لظهور ادب قومي عربيّ النزعة ما كان لمصر في القرن التاسع عشر فهي اسبق البلدان العربية الى انشاء وحدة ادارية ذاتية ، بل هي اول مكان بعثت فيه الروح العربية الاستقلالية ، كما يستدل من سياسة ابراهيم باشا التي كانت ترمي الى فصل بعض الاقطار العربية عن جسم السلطنة وتأسيس مملكة عربية كبيرة<sup>(٢)</sup> . كان ابراهيم باشا يحلم بالاستقلال حينما صرّح للبارون بوكونت بقوله<sup>(٣)</sup> « ما انا بتركي بل انا ابن مصر ان شمسها قد غيّرت دمي

(١) الدعايات لفظة غير قاموسية . ولكننا آثرنا استعمالها لشيوعها بين الكتاب السياسيين ولورودها في الحديث الشريف كقوله ادعوك بدعاية الاسلام

(٢) Rustum, The Royal Archives p. 92-96

(٣) Douin, Mission du Baron Boisle Comte p. 249

فجعلتني عربياً قحاً» وقد سارت مصر بعده بخطى ثابتة في ذلك السبيل ومع كل ذلك ظلّ الأدب العربي فيها عثمانيّ الروح . والذي يراجع نشأت الأدباء المصريين في القرن الاخير كابي النصر علي ، والشيخ علي الليثي ، وسامي باشا البارودي ، وعبدالله نديم وسواهم يتجلى له ما نقصد اليه .

وسبب ذلك ، على ما يظهر ، ما كان للخلافة ودعاتها من تأثير في نفوس المسلمين . فكان سلطان تركيا الممثل الاكبر لعظمة الشرق والاسلام . وإذا سمعنا الشيخ الليثي شاعر الحديوي اسماعيل يقول في السلطان عبدالعزيز ( على الطريقة الشعرية في ذلك العهد )

دع ذكر كسرى وقصر إن اردت ثنا      عن قيصر الروم حيث النفع مفقود  
وأشرح مآثر من سارت بسيرته      ركائب الجود تحدوها الصناديد  
ملك الملوك الذي من يمن دولته      ظلّ العدالة في الآفاق ممدود

فانما قوله انموذج لما كان يقال في العرش العثماني وخلافة الاسلام . وقد ظلت الروح العثمانية شديدة البروز في مصر حتى حدث ما حدث بعد الحرب العالمية الاولى من سقوط الخلافة وانقلاب السلطنة العثمانية الى دولة تركية صرفة . وكان قادة الحركة الادبية على اتصال بمقر الخلافة . تغمرهم النعم السلطانية كعلي ابي النصر المتوفى سنة ١٨٨٠ وعبدالله فكري ١٨٨٩ وعبدالله نديم ١٨٩٦ وابراهيم المويلحي ١٩٠٦ ومصطفى كامل ١٩٠٨ ثم المتأخرون عن هؤلاء بالوفاة كاحمد شوقي وحافظ ابراهيم واسماعيل صبري واحمد نسيم ومصطفى الرافعي وسواهم .

وشوقي على ما يظهر هو اعظم من تغنى شعرياً بمحامد الخلافة وتعظيم رجالها . فان له في ذلك قصائد سائرة . ومن اشهرها ما نظمه في وقائع الحرب العثمانية اليونانية سنة ١٨٩٧ وكان في التاسعة والعشرين من عمره كقوله في بآئته العصاء ( صدى الحرب ) يخاطب السلطان : —

بسيفك يعلو الحقّ والحقّ اغلبُ      ويُنصر دين الله آيات تضربُ  
وما السيف الا آية الملك في الوري      ولا الامر إلا للذي يتغلبُ

ومنها في وصف معركة ملونا وبأس الاتراك الظافرين : —

فهل من « ملونا » موقفٌ ومسامعُ      ومن جَبَلِها منبرٌ لي فاخطبُ  
فاسأل حصنها العجيبين في الوري      ومدخلها الأعصى الذي هو أعجبُ



وأستشهدُ الاطوادَ شَمَاءَ والذرى      بواذخ تلوي بالنجوم وتجذبُ  
هل البأسُ الا بأسهم وثبائهم      ام العزمُ الا عزمهم والتلبُّبُ  
أم الدين الا ما رأت من جهادهم      أم الملك الا ما اعزّوا وهبّوا

والحق يقال ان هذه القصيدة هي فيض من العواطف العثمانية . وكذلك كان  
كثير من شعر شوقي . فقد نشأ على حب العثمانيين وظلّ من اكبر الدعاة لهم . ومن  
أراد ان يتحقق عثمانية هذا الشاعر الكبير فليراجع من قصائده ما يلي : -  
تحية الترك ومطلعها :

بحمد الله ربّ العالمينا      وحمدك يا امير المؤمنين  
ضيف امير المؤمنين :

رضي المسلمون والاسلام      فرع عثمان دم فداك الدوام  
نجاة امير المؤمنين :

هنيئاً امير المؤمنين فاننا      نجاتك للدين الحنيف نجاة  
الاسطول العثماني :

هزّ اللواءَ بعزّك الاسلام      وعنت لقائم سيفك الايام  
في سبيل الهلال الاحمر :

يا قوم عثمان والدنيا مداولة      تعاونوا بينكم يا قوم عثمانا  
في سبيل الهلال الاحمر :

جبريل هلل في السماء وكبر      واكتب ثواب المحسنين وسطر  
الاندلس الجديدة :

يا اخت اندلس عليك سلام      هوت الخلافة عنك والاسلام  
تحية للترك :

الدهر يقظان والايام لم تتم      فما رقادكم يا اشرف الامم  
رثاء الخلافة :

عادت اغاني العرس رجع نواح      ونعيت بين معالم الافراح  
فمن قراءة هذه القصائد وسواها<sup>(١)</sup> يتبين لك ما كان للخلافة العثمانية من مقام في  
نفوس المصريين

اما في الادب المنشور فاكثر ما ترى ذلك في خطب السيد عبد الله نديم ومقالاته ، ثم في الحركة الوطنية التي قام بها مصطفى كامل وفي كتابات السيد توفيق البكري . ومن امثله قول الاول في خطاب<sup>(١)</sup> .

« هذي يدي في يد من اضعها ؟ ضعها في يد وطنك واعقد خنصرك على محبة امير المؤمنين الخليفة الاعظم والا فقطعها خير من وضعها في يد اجنبي يستميلك اليه بوعود كاذبة وحيل واهية لتكون عوناً الاكبر على ضياع حقوقك واذلال اخوانك ونزع سلطة اميرك وسلطانك » وهذه الروح بارزة في كثير من اقوال هذا الخطيب .

وكان مصطفى كامل ( وهو زعيم الحركة الوطنية قبل الحرب الكبرى ) يرى ان مصلحة مصر مرتبطة بمصلحة الاسلام على العموم . فكان كما قال زيدان « شديد المدافعة عنه » كثير السعي في نصرته . وقد كان يخدم مصلحة الدولة العثمانية من طرق كثيرة فانعم عليه السلطان بالرتب والالاقاب<sup>(٢)</sup> ، ومن قرأ خطبه تحقق صدق عثمانيته . ومن امثلة ذلك قوله من خطاب القاه على المصريين في باريس سنة ١٨٩٥<sup>(٣)</sup> .

« حقاً ان سياسة التقرب من الدولة العلية لاحكم السياسات وأرشدنا . فضلاً عن الاسباب العظيمة الداعية لهذا التقرب فان العدو واحد . ولا يليق بنا ان نكون في فشل وشقاق في وقت يعمل فيه اعداؤنا على تجزئة دولتنا . ولا غرو ان كنا نتألم لآلام الدولة العلية فما نحن الا ابناؤها المستظلون بظلها الوريث المجتمعون حول رايتهما » ... الى ان يقول « وقصارى القول ان الراية العثمانية هي الراية الوحيدة التي يجب ان نجتمع حولها . ولا تتحقق وحدتنا بغير الاتحاد والاتلاف فلنتحد قلباً ولساناً ولنكن يداً واحدة في خدمة الاوطان واسعادها . ولنقل اليوم جميعاً من صميم افئدتنا ليحي جلالة السلطان عبد الحميد وليحي العباس ولتحي العثمانية ومصر » .

واننا نترك التحقيق التاريخي البت في هل كان مصطفى كامل يستخدم الدعوة العثمانية مناوأة للاحتلال الانكليزي في مصر او كان يستخدم مناوأة الاحتلال اداة لخدمة الخلافة . ( على ان الذي لا شبهة فيه ان كلتا العثمانية والمصرية بارزتان في حياته وادبه ، وانه كان من اكبر الدعاة في مصر بل في الشرق لتوطيد دعائم الجامعة العثمانية

(١) راجع مقالاته المنشورة على نفقة المطبعة الجديدة ( مصر ) ولاسيما الثالثة والتاسعة

(٢) تراجم مشاهير الشرق ١ - ٢٩٧ و ٢٩٩ ( مصر ١٩٢٢ )

(٣) راجعه في كتاب مصطفى كامل باشا ( الطبعة الاولى مصر ١٩٠٨ ) ج ٣ - ١٩٧

في ظل الخلافة الاسلامية<sup>(١)</sup>.

وقد نشأ قبله اثنان كان لهما يد طولى في هذه الدعوة واحياها في الادب العربي .  
الاول احمد فارس الشدياق ١٨٨٧ وهو لبناني الاصل لكنه اتم علومه في مصر وعمل  
فيها فتولى كتابة الوقائع المصرية . ثم جال في اوروبا واقام فيها بضع عشرة سنة .  
وبعد ذلك امّ تونس حيث اعتنق الاسلام ثم طلب الى الاستانة وهناك انشأ الجوائب  
وكانت واسعة الانتشار في العالم الاسلامي وفيها يجد الباحث كثيراً من القصائد  
والمقالات التي تدور على عظمة الدولة ومدح سلاطينها ورجالها . كقوله من قصيدة في  
عبد العزيز<sup>(٢)</sup>.

للدولة العليا على وما أثر      يشدو بها يوم الفخار الآثر  
ساست بمالك ليس يعلم حدّها      ولغاتها الا العليم القادر  
سرحيت شئت من البلاد فلا ترى      الا النعيم وما اشتهاه الناظر

والثاني جمال الدين الافغاني ١٣١٤ هـ ويتصل نسبه بآل البيت . كان زعيماً اسلامياً  
كبيراً . وقد اضطرته الاحوال السياسية ان يفارق بلاد الافغان ويقصد الاستانة  
فاستقبل هناك بحفاوة واقام بها مدة . ثم امّ مصر وكان فيها محبة العلماء والمفكرين .  
وجمال الدين خطط وتعاليم سياسية ويؤخذ منها « ان الغرض الذي كان يصوّب نحوه  
اعماله والمحور الذي كانت تدور عليه آماله توحيد كلمة الاسلام وجمع شتات المسلمين في  
حوزة دولة اسلامية تحت ظل الخلافة العظمى »<sup>(٣)</sup>.

\*\*\*

ونحن إذا قلنا ان الادب المصري كان متشعباً بروح التشيع للخلافة والجامعة  
العثمانية فعلمنا يتناول المصريين الاصليين ولا سيما المسلمين منهم . اما نزلاء مصر من  
السوريين واللبنانيين والعراقيين فكانوا فئتين متطرفتين ، فئة تجاريي المصريين في  
عثمانيتهم وفئة تنكر عليهم هذا الاندفاع نحو تركيا .

(١) راجع قول نجيب الحداد في منتخباته ٢١٦

(٢) منتخبات الجواب (١٢٩٢) ٣ - ١٥٢

(٣) تراجم مشاهير الشرق (زبدان) (مصر ١٩١٠) ج ٢ - ٦١ . وراجع ايضاً للاستشهاد

بجلته الدروة الوثقى وخصوصاً ص ٢٢٢

ومن الفئة الاولى سليم تقلا مؤسس جريدة الاهرام . واليك بعض ما كتبه سنة ١٨٩٩ في « الوطنية العثمانية » قال - (١)

« ان في ممالكها المحروسة عناصر عديدة بين تركية وعربية وارمنية وبونانية وغيرها وكذلك مذاهب مختلفة . ولكنها تجمعها كلها جامعة واحدة وطنية هي الجامعة العثمانية وهي دون استثناء تخضع لجلالة سلطانها وتصعد بامرہ وتنصاع لاحكامه . وهذه الجامعة كانت وتكون الحصن الحصين للرعية دون اطماع الدول ، وما وراء العتب بها الا الحشران والضياح . واذا تبين هذا ، وهو الحق الصراح ، كان ابن مصر وابن الحجاز والعراق والشام اخوة لام هي دولتهم ، وأب هو جلالة السلطان » وتتجلى هذه النزعة العثمانية ايضاً في شعر خليل مطران . وفي ادب مطران وسيrote ما يدل على مجاراته الوطنيين المصريين في آمالهم ونزعاتهم . فلا نستغرب ان نسمعه يقول في قصيدته « فتاة الجبل الاسود » وكان قد نظمها قبيل استقلال ذلك الجبل (٢) -

طفت امة الجبل الاسود على حكم فاتحها الأيد  
ومنها - وما الترك الا فصول الحروب رضيعو لظاها من المولد  
اذا القحوها الدماء فلا نتاج سوى الفخر والسودد  
سواء على المجد اياً تكن عواقب مسعاهم تحمّد

وتظل هذه الحماسة العثمانية فيه الى زمن متأخر كما نرى في القصائد التي يذكر فيها حرب طرابلس الغرب وبعثات الهلال الاحمر (٣) ففي هذه وما يماثلها يظهر ميله العثماني وتشيعه لوطني مصر .

ويمثل الفئة الثانية المناوئة للسياسة العثمانية او الحميدية سليم سرڪيس صاحب جريدة المشير فهو شديد التهجم على هذه السياسة وعلى دعائها . وبما يبين لك ذلك مقالة له موضوعها « هل مصر عثمانية » قال فيها (٤) .

« لم اجد في حياتي ولا قرأت في مطالعاتي عن امة تريد الانتقال من نور الاستقلال الى ظلمات العبودية الا هذا القسم من الامة المصرية الذين يريدون التمسك بأذيال العرش العثماني » ومن شعره قوله (٥) -

(١) مجالي الفرر ٧٣ (٢) ديوانه ص ١٥٤ (٣) راجعها في الشعراء الثلاثة للسندوي

(١٩٢٢) ص ٣١٤ و٣٣٤ والمورد الصافي ٣-١٨٣ (٤) راجعها في المشير عدد ١٠٣

(٥) المشير ٢١ ابريل ١٨٩٩

نرجو صلاح الترك قد خابت امانينا الكواذب  
هي دولة ظلمت وليس العدل عن ظلم بذهاب  
فانشد معي قولاً تردده المشارق والمغرب  
ليس العجيبة فقد هـا بل عيشها احدى العجائب

ومثل سر كيس كثيرون ممن بلغ بهم اليأس هذا الحد من كره الادارة التركية على ان بين هاتين الفئتين فئة ثالثة تتوسطهما وتتصل بكليهما . وهي فئة المعتدلين الذين لم يعصمهم التفرغ عن سيئات تركيا - ومنهم من هجرها طلباً لحرية الفكر - وكان مع ذلك كله يحرص على بقاء الجامعة العثمانية . نذكر منهم فرح انطون فقد اصدر في الاسكندرية سنة ١٨٩٧ مجلته ( الجامعة العثمانية ) . ومن اسمها يتضح مذهبه السياسي . وخلاصته<sup>(١)</sup> ان الامم الشرقية يجب ان تتحالف تحالفاً متيناً جداً حتى تستطيع ان تسير مع التيار الغربي فلا يدوسها ولا يستطيع ان يهضمها . فهو منذ بدء حياته القلمية يدعو الى جامعة شرقية واسعة . ومن اقواله في العدد الاول من مجلته مشيراً الى المدارس الاجنبية - « فلننشأنا ايها العثمانيون بازاء تلك المدارس مدارس جديدة يكون اساس تعليمها حب الوطن والامة وتعليم ما هو الوطن وما هي الامة . لنؤسس مدارس جديدة ندخل اليها طرق التعليم الحديثة ووسائل التربية الحديثة . وندخل اليها قبل ذلك عناصر الامة كلها فنربيها فيها على مقاعد واحدة ونلقنها دروساً واحدة ومبادئ واحدة حتى تكون بعد خروجها من حياة المدرسة الى حياة الرجولية بقلوب واحدة وأفكار واحدة فان هذا هو السبيل الى تقوية جدار الوطنية العثمانية ووقايتها من التلثم والهدم »

وقد علق على ذلك الشيخ رشيد رضا صاحب المنار الاسلامي بقوله<sup>(٢)</sup> « فشكراً لك ايها الكاتب الفاضل ، ونجح الله تعالى الجامعة العثمانية بمبادئك الصحيحة » وبما لا ريب فيه ان الشيخ المذكور كان من دعاة العثمانية<sup>(٣)</sup> وكذلك الشيخ علي يوسف صاحب جريدة المؤيد وغيرهما من رجال العلم والدين .

ومن المعتدلين الناظرين الى الامور بعين الروية جرجي زيدان منشئ الهلال فهو من طلاب الاصلاح السياسي ولكنه لم يكن مناوئاً للعثمانية . والذي يطالع اعداد مجلته ولاسيما في السنين الاولى يراه عطوفاً على الدولة ولعله كان يرى كما كان يرى اديب

(١) « فرح انطون » ملحق مجلة السيدات والرجال ١٩٢٣ ص ١٤ (٢) المنار مج ٢ - ٢٧

(٣) راجع رأيه في محمد علي الكبير وخروجه على الدولة العثمانية المنار ٥ - ١٥٩

اسحق واصحاب المقطم وامثالهم ان الرابطة العثمانية لازمة للشرقين وان طلب  
الاصلاح لا يعني القضاء عليها او استبدال رابطة اخرى بها .  
واذا صح ان نعدّ ولي الدين يكن نزيلاً في مصر لنشأته في الاستانة واعتباره اياها  
وطنه الاصلي فهو من ابرز المنتمين الى هذه الفئة الوسطى . بل هو يجمع في نفسه  
تطرف الفئتين الاولين - شدة النقمة على السلطان عبد الحميد ، وشدة العصبية للوطن  
التركي . فلما كان في مصر ورأى بعض الجرائد الانكليزية والعربية تتعامل على العنصر  
التركي نسي نقمته على السلطان وحكومته وقام بدافع عن الاتراك غير مبالٍ بمعاداة  
كثير من خلانهِ الاحرار<sup>(١)</sup> . وهو القائل « لوطني مني حياتي وكل ما كان دونها على  
ان اعيش عثمانياً وأموت عثمانياً »<sup>(٢)</sup> ومن اقواله في وطنه العثماني

ونجسد للبيالي فيك حيي واخلصي الذي في الناس شاعا  
وفي مرثاته لادهم باشا بطل الحرب اليونانية يقول

وبلاد الفتى تعزّ عليه وعظام الآباء فيها عظام  
وعهود الصبا عهدٌ غوالي وغرام الوفيّ ذاك الغرام

وكيف التفت الى ولي الدين تجده في ادبه ذلك العثماني المخلص الذي يكره  
الاستبداد ولكنه يحبّ الوطن ، يمدح اللورد كرومر لحمايته الاحرار في مصر<sup>(٣)</sup> ولكنه  
ينقضّ على مشايعي غلادستون المتعاملين على تركيا والاتراك<sup>(٤)</sup> . حتى في ايام محنته  
ونفيه الى سيواس لا يذكر بلاده الا بالخير فيقول<sup>(٥)</sup> .

ايها الركب سرّ فانّ امامي لبعاداً مرّاً وعيشاً امرّاً  
غربةً هذه وقد كنت ادري أن سأرمي بها لدنّ كنت حرّاً  
فالفحي يا رواسي الارض ناراً وأفضي فدا فد الارض بحراً  
وانفحي يا ريح الشمال سموماً واقذفي يا سواثر الافق صخراً  
انا ارضى بهذا حبّ بلادتي وارى في سبيلها الموت فخراً

واذا ذكر الخلافة العثمانية ومجدها الماضي وكيف اصبغت في ايام عبد الحميد قرن  
ذلك بدموع الاسى على الوطن فقال<sup>(٦)</sup> -

(١) المعلوم والمجهول (١٩٠٩) ١ - ١٠٧ (٢) المعلوم والمجهول (١٩٠٩) ١ - ١٣٩

(٣) المعلوم والمجهول ١ - ١١٠ (٤) المعلوم والمجهول ١ - ١٠٧ (٥) المعلوم

والمجهول ٢ - ٦٥ (٦) ديوانه ٥٣

خلافة قد مضى عنها خلائفها من آل عثمان من سادوا ومن شادوا  
 ابقوا بها المجد للاخلاف بعدهم والمجد يبقيه للاخلاف اجماد  
 حتى انتهت لامير في تسلطه يخشى مظالمه عاد وشداد  
 يا ويلنا انما نبكي لنا وطناً يبكيه في التوب آباء واجداد

وفي ديوانه باب خاص بالسياسيات تجد فيه شواهد كثيرة على نزعة الحرية ونقمة  
 على سوء الادارة واستبداد العرش. واولى وطنياته قصيدة «نشاق حرية فيؤيسنا»<sup>(١)</sup>  
 ومنها -

اياوطناً قد جرى الفساد به متى يرينا اصلاحك الزمن  
 دفنت حياً وما دنا اجل ما ضرر لو دافنوك قد دفنوا  
 دماء ابنائك الكرام جرت بجرأ فاشلاؤهم لها سفن

ومثلها «الوطن يشكو اهل»<sup>(٢)</sup> «وزفرة من زفراي»<sup>(٣)</sup>

قالها عندما نفي الى سيواس ١٩٠٢ وفيها يقول :

عداة الحق قد ربجوا واهل الحق قد خسروا  
 ونحن اماننا وطن نراه اليوم يختصر  
 فيا افق التهب حزناً وجد بالدمع يا مطر

فولي الدين مها يكن موقفه من الادارة الحميدية عثماني مخلص شديد التعلق بالجامعة  
 العثمانية ولعله يفوق سائر الاصلاحيين في ذلك .

وما يصدق على المهاجرين العثمانيين في مصر يصدق عليهم في سائر المهاجر الا انه لما  
 كان اكثرهم هناك من السوريين واللبنانيين النازحين من بلادهم اما رهبة من الاستبداد  
 وإما رغبة في طلب العلي ، ولما كانوا بعيدين عن تأثير الدعايات العثمانية خلافاً لحال  
 اخوانهم في وادي النيل ، فقلما ترى منهم من يعطف على الجامعة العثمانية او يتم ببقائها .  
 على انك قد تجد منهم من تهزه العصبية الشرقية أحياناً فتظهر العثمانية في شعره او نثره  
 ولكن ذلك قليل اذا قيس بسواه .

\*\*\*

(١) ديوانه وجريدة المشير ٨ يناير ١٨٩٨

(٢) ديوانه وجريدة القانون الاساسي ١٨٩٨

(٣) ديوانه

واذا خرجنا من مصر الى سائر الاقطار العربية ولاسيما سوريا ولبنان والعراق فمن الطبيعي أن نجد معظم الادب السياسي فيها متلبساً بملابس المجاملة او التزلف الى السلطان ورجال دولته .

ولا ينكر ان من الشعراء في هذه الاقطار من كان صادق العقيدة العثمانية إما لتأثيرها الديني في نفسه وإما لاسباب اخرى . على ان الرهبة من الاستبداد او الرغبة في جرّ المغام كانتا قبل العهد الدستوري من اهمّ الدواعي الى شيوع النزعة العثمانية في الادب العربي . وليس على طالب الحقيقة الا ان يراجع دواوين الشعراء في ذلك العهد كبطرس كرامه وعبد الباقي العمري ، وناصيف اليازجي ، وعبد الغفار الاخرس ، وفارس الشدياق ، ويوسف الاسير ، وابراهيم الاحدب . ثم محمد حسن الحموي ، ومحبي الدين الحباط ، والباروني<sup>(١)</sup>، وعبد الحميد الرافعي ، ومن عاصروهم . فانه يجد في جميعها ما يماثل قول اليازجي الكبير في السلطان عبد العزيز . —

خليفة الله ظلّ في خليقته	ظلت به تتقى الدنيا وتستتر
لا ترتضي غيره الدنيا لها ملكاً	لو كان جبريل يأتيها او الحضر
مقلّد فوق اثواب مضاعفة	من خشية الله سيفاً صاغة القدر
إذا طلبنا من الباري لنا وطراً	فليس الا بقاءه عندنا وطر

أو قول عبد الحميد الرافعي من قصيدة في ابي الهدي الصيادي شيخ السلطان عبد الحميد<sup>(٢)</sup>

سألوا يا سعدُ أين المبتغى	قلتُ حيث الشمسُ في برج الاسدُ
حيث لي من آل طه سادة	ملأوا الدنيا بأنوار المسدُ
ودنوا من ملجأ الملك لدى	مقعد الصدق ورفق المعتمدُ
فرد ذا الدهر حميد الخلفا	دام في حفظٍ من الفرد الصمدُ

وباب مديح العظماء في ادب ذلك العهد واسع ، بل هو أوسع الابواب الشعرية . وكثير منه شخصي لا علاقة له خاصة بالاحوال السياسية . على ان منه ما يتعلق بالسياسة الداخلية او الخارجية . فدراسته من هذا القبيل مفيدة للباحث . ومن أمثلة ذلك قصيدة رفعت سنة ١٩٠٢ الى مظفر باشا متصرف لبنان عند توليه الحكم يحاول فيها الشاعر<sup>(٣)</sup> ان يعبر عن أماني اللبنانيين المهاجرين فيصف حال الجبل في ذلك الحين

(١) شاعر جزائري اقام حيناً بمصر وله ديوان مطبوع

(٢) راجعها في ديوانه الافلاذ الزبرجدية

(٣) قصير المملوف في تذكّار المهاجر (١٩٠٢) ص ١٠١



وأحوال المهاجرين ثم يلتفت الى المتصرف الجديد فيحدثه من تدخّل القناصل في ادارته . ويطلب الى نواب الاقضية ( اعضاء مجلس الادارة ) ان ينشطوا الى ما فيه خير البلاد وان يحموا سيئات الماضي في هذا العهد الجديد. ويختتمها راجياً من المتصرف ألا تكون وعوده كوعود اسلافه كلاماً في كلام فيقول -

امظفر الجبل الذي ضمنت لنا اقواله ينناً يعزّ مثاله  
كم حاكم ابدى لاول حكمه وعداً فكان وفاءه اخلاؤه  
حاشاك اخلاف الوعود فانت من شرف المبادئ والوفاء خلاؤه  
تروا لنا التاريخ مسوداً فكن تمنّ تخلد بالجميل فعاله

ولو رجعنا قليلاً الى الوراء وراجعنا مثلاً مدائح فاضل اليازجي وخليل الخوري في فؤاد باشا لقرأنا في خلال سطورها كثيراً عن حوادث السنة الستين في سوريا ولبنان وقس على ذلك كثيراً من شعر المديح المتعلق بحوادث سياسية اثارت خواطر الناس في مختلف الاقطار العربية .

﴿ البوادر الثورية الاصلاحية ﴾ راينا فيما سبق ان « العثمانية » كانت قبل الدستور بارزة في الشعر المصري عموماً . وفي كثير من الشعر العراقي والسوري واللبناني . على ان الشعر العربي لم يكن كله كذلك . فقد كان في الشرق العربي كما اسلفنا احرار يهاجمون الفساد ويحملون على السياسة الفاشية التي كانت تدفع البلاد الى هوة الانحطاط . وبرز ما نرى ذلك في عهد مدحت باشا ابي الاحرار العثمانيين . فانه لما تولى ولاية سورية ظهر في بيروت ودمشق حركة ادبية ترمي الى احياء الشعور القومي والتظلم من ضغط الاستانة . ولا ندري تماماً سرّ تلك الحركة اكان مبعثها كما يقول البعض مدحت باشا نفسه طمعاً يجعل سوريا كمصر والجلوس على اريكة الحكم فيها<sup>(١)</sup> . ام لان وجود ذلك الحاكم النزوع الى الاصلاح انشأ في سوريا ( كما انشأ من قبل في العراق ) جواً ادبياً حراً استطاع به اباء الضيم ومرهفو الاحساس ان يبشوا بعض خواجلهم ويفرّجوا عن كربتهم . ذلك ما نتركه للتحقيق التاريخي .

واقترضت السياسة نقل مدحت سنة ١٨٨٠ الى ازمير ثم محاكمته بتهمة قتل السلطان عبدالعزيز فتخلّص عبد الحميد منه ، وبوقت قصير استطاع ان يبش برجال الحرية

والدستور وان يرجع بالبلاد الى عهد الاستبداد المطلق. فهو بعد ان بدأ حكمه ١٨٧٦ باعلان الدستور وبمجاراة والده عبدالمجيد في طلب الاصلاح نكص على عقبيه وعاد كما يقول روجي الخالدي «الى سياسة جدّه السلطان محمود خان في استعمال الجبر والاستبداد معتقداً ان الشعوب التي وضعها الله تحت يدي جلالته لا يمكن تسييرها الا بالقوة»<sup>(١)</sup> فخدمت في ايامه الروح الاصلاحية داخل البلاد لكن بعض الاحرار من الترك والعرب حملوها الى الخارج وهناك نت وترعرعت فكانت من العوامل الفعالة في انقلاب الحكومة الحميدية . وفي هؤلاء الاحرار المهاجرين يقول المشير<sup>(٢)</sup> « هم اخواننا في الانسانية ، ورفاقنا في الحرية . علموا ان المجد لا ينال الا على جسرٍ من التعب . فهم يتعبون في السعي وراء خدمة بلادهم وارجاع مجد مملكتهم الذي انخط الى دركات الجحول باهمال الامام الذي جار في احكامه والاعوان الذين صاروا بليّة على الامة»... الى ان يقول . . « وقد انضم اليهم بعض ابناء سوريا ومصر وهرب البعض منهم من عالم الجور والظلم الى فضاء الحرية والامن فانتشروا في باريز وسويسرا وانكلترا وأميركا وأنشأوا الجرائد » الخ .

فظهر من هؤلاء المهاجرين طبقة من حاملي شعلة الادب وأكثرهم الآث في عالم الارواح منهم فتح الله مراش - رزق الله حسون - عبدالرحمن الكواكبي - خليل غانم - محمد قدري - لويس صابونجي - امين مجيد ارسلان - حبيب سلموني - خليل سعادة - سليم سر كيس - نجيب الحداد - ولي الدين يكن . ولا يزال حياً من هذه الطبقة فارس نمر ( الدكتور نمر باشا ) .

ومن أراد الاطلاع على بنات افكارهم فليرجع الى مؤلفاتهم ( واكثرها معروف ) او الى صحفهم كالمشير والمقطم ولسان العرب ومرآة الاحوال والمجلة وتركيبا الفتاة والنحلة والشورى وضياء الخافقين ورجع الصدى وكشف النقاب وسواها<sup>(٣)</sup> وكلهم كما يصرح الدكتور يعقوب صروف قد اتحدوا على التنديد بالادارة السيئة الضاربة اطنابها في بلادهم<sup>(٤)</sup> .

على انهم في ذلك متفاوتون . فمنهم المشدد ومنهم المعتدل . ومنهم من بلغ به

(١) الهلال ١٧ - ١٢٥ (٢) عدد ١١٣ (٣) في المعلوم والمجهول لولي الدين ص ٦٢

- ٧٢ وصف لبعض هذه الصحف وأصحابها فليراجع . (٤) المختطف ٣٣ - ٨١٣

فرط التشاؤم حدّ اليأس بالاصلاح فصار لا يرى اصلاحاً الا بهدم كيان الدولة او وقوعها تحت مراقبة الاجانب. واقدم ما راينا من هذا القبيل قصيدة لرزق الله حسون نظمها في الحرب الروسية العثمانية واستيلاء الروس على القرص ومنها :<sup>(١)</sup>

كم حروبٍ للروس دارت على التوك رحاها فغادرتها طحينا  
عَلِمَ الروس بمحقق اليوم فوق القرص ولّى الاتراك في الغابرينا  
هكذا هكذا تدور على الباغي الدوائر<sup>(٢)</sup> وهلك المجرمون  
ما عليهم لو عاملونا بحسنى وتساوٍ او انهم انصفونا

قال الدكتور فارس نمر باشا من خطبة له في النهضة الدستورية مشيراً الى فتح الله مرّاش ورزق الله حسون<sup>(٣)</sup> - « فهذان الحُرَّان الحليان اللذان فاقا الاقران بحب الحرية كما فاقا الاقران بمعانيهما السحرية ومبانيهما العسجدية قضيا رديحاً من الزمن يرسلان شعاع الحرية الى ابناء سوريا من قلب اعظم عاصمتين اشتهرتا في اوروىا بالحرية والنظامات الدستورية ( اي لندن وباريس ) ولكنها مزجا بلاغتهما بعلمهم التفريق بين التوك والعرب فأصابا بايقاظ النفوس لطلب الحرية واخطأ بتمزيق الجامعة العثمانية » ويستدل من شعر حسون انه لجأ الى روسيا حيناً . ومدح قيصرها بقصيدة جعل القسم الاول منها وصفاً لفساد الاحوال في تركيا فقال : -

مُجِلَّتِ الشَّامُ وَغَسَّاناً وَوُعِجَتِ عَلَى فِينِيقِيَا وَكَبِيلِكِيَا كَمُعْتَمِرٍ  
واذرعَاتٍ وبلقاءٍ وَتَدْمَرُ فِي صحراءَ خَالِيَةٍ كَالْبَحْرِ مِنْ شَجَرٍ  
اذ لم اجد غير امصارٍ مقلّبةٍ ورسم ابنيه تبكي على الزمير  
وقفت انعي خراب الملك من مدُنٍ فِي الحَصْرِ والوصف يعي المرء بالحَصْرِ

وهو يعزو ذلك الخراب الى سوء ادارة السلطان ورجال دولته ثم يقول بعد ابيات

لهفي ولهف بني الاحرار كلهم على التساوي بانصاف مدى العُمُر  
ومنها : حتى دخلت بلاد الروس ملتجئاً بالمستجار محبّ الله والبشر

ومن هنا يتقدم الى وصف ما وجده في روسيا من عدل وامن ويقابله بسوء الحال

(١) راجع القصيدة في المشير عدد ٣١ ( وفي بعض أبياتها اضطراب في الوزن )

(٢) هكذا رواية المشير ولو استبدلنا الدوائر بالدوامي او اللبالي - لاستقام الوزن

(٣) المقتطف ٣٦ - ٢٥٨

في تركيا فتؤله' المقابلة ويصبح من قلب متحسر<sup>(١)</sup>.

وإن تذكرت' اوطاني بكيت دماً من مهجة طفحت جرياً بمنهر

ومثل حسون في النقمة على الادارة التركية وحب التخلص منها عدد من الادباء ( وجلهم من مسيحي سوريا ولبنان ) وقد سبقت الاشارة الى احدهم سليم سر كيس . وهو من الذين برزوا في هذا المضمار وله في ذلك كثير من القصائد والمقالات . منها قصيدة موضوعها « ثلاث حبات » وضعها على لسان ارمني يموت جوعاً<sup>(٢)</sup> وقصيدة نفي سوريا التي مطلعها<sup>(٣)</sup>.

يا اهل سوريا القساور' من كل مفخور وفاخر'  
افترتضون صفارة' لم يرضها في الناس صاغر'

وله قصيدة اخرى مرّ ذكرها في كلامنا على موقف السوريين من الدعاية العثمانية في مصر وهي شديدة الوطأة وكذلك اكثر شعره ونثره . ويكفي ان نقول انه صاحب جريدة المشير التي اشتهرت بعدائها للدولة العثمانية ولاسيما لسياسة عبد الحميد . والذي يراجع الجرائد الحرة التي كانت في ذلك العهد تصدر خارج تركيا او في جوّ بعيد عن السيطرة التركية يجد ما لا يستطيع حصره هنا من نفثات الكتاب والشعراء الذين كانوا يحملون على عبد الحميد ويناوئون سياسته . وقد كان لتلك النفثات تأثير ملموس في النفسية العربية بل هو الحميرة التي خمرتها وهبأتها للنهضة القومية التي تلت ذلك العهد .

واذا كان السوريون واللبنانيون قد اضطروا قبل الدستور الى هجر تركيا ، ولم يستطيعوا الجهر برغائبهم الا خارجها . فمن الانصاف ان نذكر هنا ان الشعر الاصلاحي في العراق كان يسمع احياناً حتى في 'عقر البلاد . وبرز دعائه هناك اثنان - جميل الزهاوي ومعروف الرصافي . فلكليهما ما يستوقف النظر من الحملات العنيفة على سوء الادارة . ولقد يستغرب الانسان هذا العنف وصبر اولي الامر عليه دون عقاب بميت . ولكنه الواقع كما يتبين لمن يطالع قصائدهما القديمة وهما في عنفوان الشباب والقوة . فمن ذلك قصيدة للزهاوي قالها في الاساتنة ( حوالي سنة ١٨٩٧ ) وهي كما

(١) راجع القصيدة في ديوانه النثبات ص ٧٢ (٢) راجعها في المشير ٥ ابريل ١٨٩٦

(٣) المشير ١١ مايو ١٨٩٥

سترى من أشد ما هوجمت به إدارة ذلك العهد وقد كان عقابه النفي من الاستانة الى وطنه بغداد . ومطلعها

ألا فانتبه للأمر حثام تغفل  
اغث بلداً منها نشأت فقد عدت  
ومنها - وما رايتني الا غرارة فتية  
تؤمل اصلاحاً وترجو سعادة  
وما هي الا دولة همجبة  
فترفع بالاغزاز من كان جاهلاً  
ومنها - لقد عبثت بالشعب اطماع ظالم  
فيا ويح قوم فوضوا امر أنفسهم  
أما علمتك الحال ما كنت تجهل  
عليها عواد للدمار تعجل  
تؤمل اصلاحاً ولا تتأمل  
الا باطل ما ترتجي وتؤمل  
تسوس بما يقضي هواها وتعمل  
وتخفص بالاذلال من كان يعقل  
يحمّله من جوره ما يُحمّل  
الى ملك عن فعله ليس يسأل

وهي طويلة واكثرها على هذا النسق<sup>(١)</sup> ومثلها قصيدته « الصارخة » وهي نخبة  
يصف فيها حكومة عبد الحميد ونشرها يومئذ في المقتطف<sup>(٢)</sup> ومن نقائمه قوله من قصيدة  
يخاطب السلطان<sup>(٣)</sup>.

ان الرعية اغنامٌ يحُدّ لهم  
يا عدل ان التقاناً منك يسعدنا  
ما جاءنا الشر الا من تهاوننا  
لا بد من فك ما قد شد من عقد  
إن الذين استحبوا قتل انفسهم  
وقوله يصف حال وطنه

ألا رعى الله اوطاناً لنا انتهكت  
قد أضرم الجور ناراً في جوانبها  
محبوبة السهل والوديان والكثب  
واهلها بين نقاخٍ ومختطب

وعلى هذا المنوال ينسج في كثير من شعره السياسي القديم . وكجراته جراءة  
زميله الرصافي ولا سيما قبل ان يؤم الاستانة ويشغل منصباً علمياً فيها . ومن قصائده  
الجريئة تحمّس طويل موضوعه « ايقاظ الرقود » جاء فيه : -

(١) راجع ديوانه ( مصر ١٩٢٤ ) ٢٨٠ (٢) راجع ديوانه ( مصر ١٩٢٤ ) ١٩٦

(٣) ديوانه اللباب ( بغداد ١٩٢٨ ص ١٤ )

حكومة شعبنا جارت وصارت علينا تستبدّ بما اشارت  
فلا احداً دعت ولا استشارت وكلّ حكومة ظلمت وجارت  
فبشرها بتمزيق الجلود

اقول وليس بعض القولِ جدّاً لسلطان تجبّر واستبدّاً  
تعدّي في الامور وما استعدّا ألا يا ايها الملك المفدّي  
ومن لولاه لم نك في الوجود

انم عن ان تسوس الملك طرفاً اقم ما تشتهي زمرّاً وعزفاً  
اطل نكر الرعية خلّ عرفاً سم البلدان مهما شئت خسفاً  
وارسل من تشاء الى اللحد

وتتجلى لنا هذه الجراءة ايضاً في قصيدته « رقية الصريع » التي مطلعها  
يا عدلُ طال الانتظار فعجّل يا عدلُ ضاق الصبر عنك فأقبل  
ومنها : كيف القرار على امور حكومة حادت بهنّ عن الطريق الامثل  
ومن هنا يأخذ بوصف فساد الادارة واستبداد الخليفة منادياً بسقوط الحكومة  
الفردية ووجوب استبدالها بنظام جمهوري او دستوري. ثم يقول غير هيّاب  
حَتّامَ نبقى لعبةً لحكومة دامت تجرّعنا نقيع الخنظل  
تنحو بنا طرق البوار تحيِّفاً وتسومنا سوء العذاب الاهول  
ما بالنا منها نخاف القتل إن قمنا أما سنموت ان لم نقتل ؟

وفي ديوانه الاول المطبوع سنة ١٩١٠ كثير من هذه الحملات العنيفة نظم بعضها  
في العهد الاستبدادي وبعضها في عهد الدستور . وقد صدق محي الدين الحياط اذ قال  
فيه <sup>(١)</sup> « من هؤلاء الافذاذ الذين فطروا على عدم الاستخذاء للضم والتجاني عن  
مضاجع الذلّ وعدم الاستئانة للحوادث . وقد كان يقرع قومه في اشد ايام الاستبداد  
بمثل قوله : -

عجيب لقوم يخضعون لدولة يسوسهم في الموبقات عميدها  
واعجب من ذا انهم يرهّبونها واموالها منهم ومنهم جنودها

وهذان البيتان من قصيدة موضوعها « تنبيه النيام » وهي خمسة وثلاثون بيتاً وكلها تتقد بمثل هذه النيران النفسية .

ومن الاحرار عبدالمحسن الكاظمي الذي اضطر الى هجر العراق وهو في العشرين من عمره هرباً من اضطهاد السلطات التركية<sup>(١)</sup>

وقد كانت في البلاد العربية العثمانية غير من ذكرنا من اصحاب الوجدان الحر والنزعة الثورية ولكنهم قلما كانوا يجرؤون على الجهر بما تكنه صدورهم لحرص قلم المراقبة ان لا ينشر في الصحف او الكتب الا ما يوافق مصلحة الحكومة ويشيد بذكر رجالها . فاجروا اقلامهم في غير الاصلاح السياسي وبلغوا في ذلك كما سنرى بعد شأواً يذكر

\*\*\*

﴿ النعرة الشرقية في الادب الحديث ﴾ ظهر لنا في العواطف الشعرية العربية السابقة لعهد الدستور مجريان رئيسيان - المجري العثماني ( او الدعوة للعرش العثماني ورجاله ) والمجري الاصلاحى ( او الحمل على ذلك العرش ودعائه ) . وظهر لنا ايضاً ان للاخير فرعين فرع المتطرفين الداعين الى هدم الكيان العثماني . وفرع المعتدلين القائلين بوجوب الانقلاب مع المحافظة على الجامعة العثمانية . والذي يلوح لنا ان هؤلاء هم الاكثرية بين الاصلاحيين وقد كان هدفهم تجديد السلطنة ورفع مستواها لتكون وطناً حراً خليقاً بأن يحب ويفخر به . فالشرق والغرب عندهم لا يجتمعان ولا ينجي الشرقيين من برائن الاستعمار أو يحفظ كيانهم الشرقي الا العرش العثماني اذا قام على اسس الحضارة الجديدة ومن الطبيعي ان يكون المسلمون عموماً أعطف على الدولة العثمانية وفيها خلافتهم ومجدهم . بذلك على ذلك ما اظهره في الحروب التي خاضتها قبل الدستور وبعده كحرب روسيا سنة ١٨٧٨ والحرب اليونانية ١٨٩٧ وحرب طرابلس ١٩١١ وحرب البلقان ١٩١٣ . بل وفي الحروب التي لم تخضها ولم يكن لها فيها مصلحة مباشرة كحرب روسيا واليابان ( ١٩٠٤ - ١٩٠٥ )

ففي هذه الحرب كان العالم الاسلامي العربي بجانب اليابان لا لسبب الا لان اليابان دولة شرقية ثم هي تحارب روسيا عدوة تركيا التاريخية . وقد اثارت هذه الحرب من العواطف الشعرية في ادبنا ما لا يجوز لباحث الاغضاء عنه . فمن ذلك قصيدة مشهورة

لحافظ ابراهيم مطلعها : « لا تلم كفتي اذا السيّف نبا » وفيها يقول مادحاً امبراطور اليابان ( الميكادو ) ووطنية شعبه

هكذا الميكادو قد علمنا ان نرى الاوطان امّا وأبا  
ملكك يكفيك منه انه انهض الشرق فهزّ المغرب

وكذلك قوله من قصيدة موضوعها « الانقسام آفة الشعب »

فانفضوا النوم وجدّوا للعلی فالعلی وقف على من لم ينم  
وانظروا اليابان في الشرق وقد ركزت اعلامها فوق الامم  
حاربوا الجهل وكانوا قبلنا في دجى عميائه حتى انهزم  
فاسألوا عنها الثرى لا الثرى انها تحلّ أبراج الهمم

وقوله من قصيدة « أساحة للموت أم محشر » يشير الى ما نال الشرق من انتصار

اليابان .

تسوءنا الحرب وان أصبحت تدعو رجال الشرق أن يفخروا  
أتى على الشرقي حين اذا ما ذكر الاحياء لا يذكر  
حتى أعاد الصفر ايامه فانتصف الاسود والاسمر

ولعلّ قائلًا يقول ان شعر حافظ في الحرب الروسية اليابانية بل شعر مصر عموماً انما هو لما في نفوسهم من العطف على العثمانية لا لنصرة شرقية تستفزهم الى تحدي الغربيين . فنقول ان اليابان كانت يومئذ حليفة بريطانيا . وفي الاسادة بحامدها نوع من الدعاية لبريطانيا . ومع كل ذلك لم يمتنع حافظ وزملاؤه<sup>(١)</sup> وهم من محاربي النفوذ البريطاني في مصر عن ان يستسلموا لعواطفهم الشرقية ويظهروا عطفهم على دولة شرقية برغم ما يربطها من الصداقة بمحتلي مصر

واذا القينا نظرة على غير مصر وجدنا ان الشعراء حتى الاحرار الناقمين على السلطة الحميدية يضربون على هذا الوتر الشرقي كما فعل الرصافي في قصيدته « معركة تسوشيا »<sup>(٢)</sup> اذ قال :

سعروها في البحر حرباً ضروساً تأكل المال نارها والنفوسا

(١) كمصطفى الرافعي واحمد نسيم ومحمد عبد المطلب وسوام

(٢) وهي معركة بحرية بين الاسطولين الروسي والياباني كانت نصرًا باهرًا لليابان



يوم طوغو<sup>(١)</sup> دهي بأسطوله الروس قتالاً وكان يوماً عبوساً  
فحداها بوارجاً تملأ البحر وقاراً طوراً وطوراً بوساً  
فكسومهم من الموان لبوساً وسقوهم من المنون كؤوساً  
هكذا شيدوا بناء المعالي هكذا احسنوا لها التأسيساً

وللشاعر اللبناني أمين ناصر الدين في الحرب الروسية اليابانية قصيدة<sup>(٢)</sup> موضوعها «الياباني ومعشوقته» جعل سداها ولحمتها شجاعة اليابان وحميتهم الوطنية وظفرهم الباهر ومن ذلك ما وضعه على لسان المجاهد الياباني : -

هجمنا على ميناء «ارثور» هجمةً تردّ ابن عامٍ وهو بالخوف اشيبُ  
بييض يلوح النصر ايان جرّدت وسمري لها بين القلوب تقلّبُ  
وكنا اذا انهلّ الرصاص كأننا من الغيد بالتفاح نرمي فنطربُ  
وعدنا وهاتيك القلاع بأسرها مهدّمة قد حلّ منها المركّبُ  
وقائعنا في البحر كانت عجيبةً ولكنها في لجة البحر اعجبُ

وهنا يصف معركة تسوشيما وانتصار طوغو ثم يقول : -

ورجعت الافطار صوت انتصارنا ففي الشرق هزّاج وفي الغرب ندبُ

وقد اصاب الشاعر فان الشرق الادنى العربي او قل العثماني عرته هزة وطنية عامة على اثر انتصار اليابان وقد ردها الادب العربي عدة سنين بعد تلك الحرب . وكان كلما اراد انهاض الامم الشرقية ذكرها باليابان ونهضتها كقول كاتب هذه السطور سنة ١٩١١ من قصيدة موضوعها الحياة الجديدة في المشرقين<sup>(٣)</sup>

معاذ الله ان نبقي نياما يحيط بنا الظلام ولا ظلاما  
ارى النيران تضطرم اضطراما وآسيا تهبّ من الهجود

ونجم المجد في اليابان يسطع تخرت لهم كواكبهم<sup>(٤)</sup> وتخضع  
اضاء على الملا الشرقي اجمع وافهم جمعهم معنى الوجود

\*\*\*

(١) اميرال الاسطول الياباني (٢) راجعها في صدى الحاطر (١٩١٣) ص ٣٤

(٣) راجعها في المورد الصافي م ٣ ص ١٧٣ (٤) الضمير في كواكبهم يرجع الى الغربيين

ولو اردنا تعداد القصائد والمقالات التي اثارها هذه الحرب او ذكرياتها لضاقت بنا الصفحات الكثيرة<sup>(١)</sup>. وليس غرضنا من الاشارة اليها وضرب الامثلة عليها الا اثبات حقيقة قد تضع في مطاوي الايام، او تذهب بذهاب الذين عرفوها بالاختبار وهي ان النهضة اليابانية التي بلغت اوجها في حرب ١٩٠٤ - ١٩٠٥ قد حركت عواطف الوطنيين في مصر والشام والعراق فظهر ذلك في ادبهم المنظوم والمنثور، وكان من الاسباب المهمة لذلك الانقاد الوطني الذي عقب اعلان الدستور العثماني فعزز الروح الشرقية في جميع الافطار العربية<sup>(٢)</sup>

﴿ عوامل اقليمية ﴾ بقي علينا في هذا المقام ان نوجه النظر الى حوادث سياسية تركت في الادب صبغتها الخاصة. وهي كثيرة ومتفاوتة الاثر على ان اهمها اثنان وهما:  
١ - حركة السنة الستين (١٨٦٠) في البلاد السورية وما عقبها من استقلال لبنان الداخلي<sup>(٣)</sup>. ولهذه الحركة في الادب العربي ظاهرتان كبيرتان - الاولى تأصيل الحزازات الدينية بين ابناء سوريا - تلك الحزازات التي كانت ولا تزال من اهم بواعث الشقاق في الشرق . والثانية انفصال لبنان عن السلطنة العثمانية بكيان سياسي خاص مضمون من الدول العظمى فصار اللبناني يشعر بكرامته الذاتية ويتذوق حلاوة الاستقلال وفي تينك الظاهرتين نكوّن في نفسه ذلك الشعور الاقليمي المناوئ لحركة الوحدة العربية كما سيجي.

ومن يراجع دواوين الادباء اللبنانيين في هذه الخمسين السنة الاخيرة يرى شوع ذلك الشعور برغم جميع الوسائل التي كانت تستخدم لضعافه . ولا ينكر ان بعض اللبنانيين قد اخذ بعد الحرب العالمية الاولى ينزع نزعة وطنية عامة ، إما تحت اسم القومية السورية وإما تحت اسم الوحدة العربية ، ولكن الشعور القديم الموروث عن آباءهم والمستمد من استقلال لبنان بعد السنة الستين لا يزال قوياً ، وسيظل الادب اللبناني مصطبغاً به مدة طويلة من الزمن

٢ - الاحتلال البريطاني لمصر سنة ١٨٨٢ . وهو من الحوادث الاقليمية الكبرى

(١) من اهمها قصائد فارس الخوري في الحرب الروسية اليابانية وعنوانها «وقائع الحرب» وهي مطبوعة بمصر - المار ١٠ - ٥٦ (٢) راجع ديوان مصطفى الرافعي ١ - ٢٦ وديوان احمد نسيم ١ - ١٣ (٣) راجع هنا قصيدة الخوري حنا رعد المعاصي في مدح فرنسا - الاداب العربية في القرن التاسع عشر شيخو ١٠٤

التي تكاد لخطورتها ان توضع في مصاف العوامل العامة . ولا نتعرض هنا للبحث في اسباب الاحتلال او النظر في مساوئه وحسناته فذلك من خصائص التاريخ . ولكننا نقرر ان هذا الاحتلال كان مبعثاً لادب مصري عنيف ، وكان له صدى لا يزال يتردد في انحاء البلدان العربية

وبرغم تضارب الآراء فيه فاننا نرى ان اكثر الشعراء والخطباء في مصر كانوا ينظرون الى الاحتلال نظر العداء وينادون بالاستقلال والدستور . وقد ادى ذلك الى احياء الشعور الوطني فيها ثم الى تدرجها في مراتب الاستقلال حتى بلغت ما بلغت في هذا العهد .

ولما كان هذا الادب المصري الوطني شديد الارتباط بما نشأ منه بعد الدستور فسنتركه الآن على ان نعود اليه مفصلاً في مقام آخر .

\*\*\*

ومن هذه العوامل الاقليمية — حوادث ارمينية ، وحواران ، واليمن وكثير من حوادث العراق المحلية . ولما كانت غايتنا هنا وصف الاتجاهات العاطفية العامة فاننا نقف عند هذا الحد من الكلام على الشعر قبل الدستور تاركين العوامل المحلية لمن يجب التخصص فيها .

# الشعلة الدستورية

سنة ١٩٠٨

وانقضاء العهد الحميدي

ذكرنا آنفاً ان عبد الحميد قد بدأ حكمه باعلان الدستور والحكم النيابي ولكن ذلك الدستور لم يلبث ان خفق في المهد . وعادت الدولة الى نظام الحكم الفردي فكان ما عرفناه من تفاقم الضغط السياسي والاضطراب الاجتماعي طيلة العهد الحميدي<sup>(١)</sup>. ولعلّ الايات التالية لولي الدين يكن ترسم لنا بوضوح صورة ذلك العهد.  
قال<sup>(٢)</sup>

يبكي بنوك ويضحك الزمن	ماذا أصابك أيها الوطن
ما أوشكت ان تنتهي محن	الا وجاءت بعدها محن
اما الرسوم فانها درست	اما الرجال فانهم دفنوا
العصر راجت سوق باطله	فالحق فيه ما له ثمن
يا قوم هبوا من مضاجعكم	طال المدى حثام ذا الوسن

وما رآه ولي الدين في تركيا نفسها رآه جميل الزهاوي في العراق فقال من قصيدة موضوعها « نحن في غفلة »<sup>(٣)</sup>

نحن في غفلة نيام وعنا	نأثبات الزمان غير نيام
نحن في دولة تداركها الله	تبيع المحظور للحكام
وعدها بالاصلاح جم ولكن	لا يجوز الاصلاح حد الكلام
نحن قوم قضت ارادة شخص	واحد ان نعيش كالأنعام

(١) راجع وصف هذا الاضطراب في مقالات الانقلاب العثماني - الهلال م ١٧ ولاسيما ص ١٥٧

- ١٦٣ (٢) ديوانه (الطبعة الاولى) ٣٢ (٣) ديوان الزهاوي (مصر ١٩٢٦) ص ٢٩١

ومن الطبيعي ان يصحب الاضطراب الاداري اشتداد العوامل الهدامة من الخارج ومن الداخل. وقد صدق روعي الخالدي اذ قال <sup>(١)</sup> « فبسبب تشويش الادارة وتذبذبها لم يعد للحكومة قاعدة مطردة ولا اصول مرعية لا في سياستها الداخلية ولا الخارجية ولذا سقط اعتبارها عند الدول الاجنبية حتى تجرأوا على تهديدها في المسائل الطيفية العادية وسقط اعتبارها أيضاً في نظر رعاياها وصار أكثر الموجودين منهم في الديار الاجنبية بأنفون من دخولهم في التبعية العثمانية ». فلا عجب اذا رأينا ممتلكاتها البلقانية تنفصل عنها واحدة بعد واحدة فضلاً عن كريت وقبرص وسواها . وفي الشعر العربي اشارات كثيرة الى ذلك كقول الزهاوي <sup>(٢)</sup>

رعى الله شعباً أهملته رعاته      وملكاً كبيراً ركنه تهزع  
تقطع منه كل يوم مدينة      وما الكف الا اصبع ثم اصبع  
وكقصيدة في جريدة المشير مطلعها <sup>(٣)</sup>

ذهبت وبيا للهول ارض كريد      بمصائب هتكت ستار الغيد

وكلها طعن في عبد الحميد وسياسته التي ادت - بزعم الشاعر - الى تجزئة المملكة وزعزعة اركانها . وكثيراً ما نرى هذه الاشارات الى ضعف السلطة مقرونة بشعور الأسى والجزع كقول ولي الدين في منفاه الى سيواس <sup>(٤)</sup>

يقول احبني صبراً      وهل في النار يصطبور  
ونحن اماناً وطن      نراه اليوم يحتضر  
فمن يجزع فمعدور      ولكن قل من عذروا  
فيا افق التهب حزناً      وجد بالدمع يا مطر

ففي مطلع القرن العشرين نرى السلطة العثمانية بين المطامع الاوربية والفساد الداخلي في موقف شديد الدقة . وكما تمكن الاحرار في مثل هذا الموقف سنة ١٨٧٦ من اعلان الدستور عادوا بعد اثنتين وثلاثين سنة تحت لواء « الاتحاد والترقي » فاضطروا عبد الحميد الى اعلانه والشروع في انتخاب نواب الامة . وهكذا كان يوم ٢٤ تموز ( يوليو ) ١٩٠٨ يوماً عظيماً في تاريخ السلطة العثمانية اذ تنادى زعماء الامة

(١) الهلال ١٧ - ١٦٣ (٢) الباب ١٣ (٣) المشير ٢٧ فبراير ١٨٩٧ لاسمد

حمادي (٤) ديوانه ٥٦ . وراجع ايضاً قول الشبيبي ديوانه ٤

بالحرية والمساواة والاخاء فتجاوبت اصواتهم في انحاء البلاد وكان لها دوي عظيم بين ابناء الشرق العربي .

﴿ الاستبشار العام بالعهد الجديد ﴾ وباعلان الدستور سرت في نفوس العثمانيين عموماً وابناء العربية خصوصاً نشوة حبور لم يُعهد لها مثيل فعمدوا الحفلات الباهرة في الوطن وفي المهاجر . وانبرى خطباؤهم وشعراؤهم يشيدون بحسنات الانقلاب واعمال القائمين به <sup>(١)</sup> . ولا نبالغ اذا قلنا انه ما من حدث حرك الاقلام العربية كهذا الحدث العظيم فقولنا قول من شهد بعينه تلك الحال وعرف باختباره شعور الناس وشاركهم في غبطتهم العامة وآمالهم الواسعة . خذ سوريا ولبنان مثلاً وراجع صحفها لذلك العهد فتدرك عمق ذلك الانفجار الادبي فيها . ويكفي ان نلمح هنا الى قصائد عبدالله البستاني ، ومحبي الدين الحياط ، وشكيب ارسلان ، والياس فياض ، ونقولا فياض ، وفارس الخوري ، وامين ناصر الدين ، وعبدالرحمن سلام ، ومصطفى الغلاييني ، وشبلي ملاط ، وبشارة الخوري ، وسواهم من شعراء الوطن ، وسعيد شقير ، واسعد رستم ، والشاعر القروي ، وشبل دموس ، ونعوم مكرزل وامثالهم في مصر والمهاجر الغربية . هذا فضلاً عن عشرات الاناشيد الوطنية والازجال العامية التي لبست من البيان مسحة لم نعهدها في عهود الاستبداد .

وما يصدق على سوريا ولبنان يصدق على العراق ايضاً . وهناك الزهاوي ، والرصافي ، والدجيلي ، والعبادي ، والشبيبي ، والهنداوي ، والازري ، والعبيدي بمن شهدوا هذا الانقلاب وكان كلامهم معبراً عن عواطف الامة .

وقد رسم لنا الزهاوي يومئذ صورة لبغداد تُعدّ مثلاً صادقاً لجميع المدن العثمانية .

قال <sup>(٢)</sup>

وقفت والعين تبكي من مسرتها      امام شعب من الافراح عجاج  
امام بحر من الافكار مضطرب      امام جيش من الاصوات رجراج  
ان الشعوب اذا هاجت عواطفها      كالبحر يضرب امواجاً بأمواج

ازاء هذه النعمة الدستورية نسي شاعرنا ما كانت يثير اشجانه من مساويء العهد

(١) قال المختطف ( ٣٣ - ٩٠٥ ) كان لاعلان الدستور أعظم وقع في نفوس العثمانيين فعمدوا له حفلات باهرة في بلادهم وفي كل البلدان التي هاجروا اليها نلي فيها من الخطب والقصائد ما لو جمع للملا مجلدات كثيرة (٢) ديوانه (١٩٢٤) ٢٧٤

الماضي - عهد الظلم والجهل والفوضى - كما كان ينعته قبلاً ، فقال والامل يملأ فؤاده<sup>(١)</sup>

البرق اهدى لنا بشرى بها هدأت ارواحنا بعد طول الخوف والرهب  
بشرى كما تبغى الآمال صادقة اجلها الناس من قاص ومقرب  
لقد اقرت لعمري اعيناً سخنت ما ناله فئة الاحرار من ارب

وقال آخر يصف شعوره وشعور الناس في احدى حفلات الدستور في بيروت<sup>(٢)</sup>

« هذه اول مرة شعرت فيها بالوطنية التي يشعر بها كل من قدر الوطنية قدرها .  
يتزاور الناس من جميع الطبقات وهم فرحون منشرحو الصدور فاليوم شعر  
السوريون بطيب الحرية وادركوا سوء مغبة الاستبداد والضغط وعرفوا ان التعصب  
الذي يفرق الكلمة يفرق القلوب . اليوم دروا ان اوربا لم تستفعل صولتها الا بالاتحاد ،  
ولا اتحاد مع التعصب »

وليس في هذا الكلام شيء كبير ولكنه شعور الناس يومئذ . وقد كان ذلك  
الشعور يتدفق شعراً ونثراً على السنة كبار الادباء وعلى السنة صغارهم وكان للشعر  
العامي نصيب وافر منه ولا سيما في لبنان ومهاجره ومن امثله قول احدهم ارتجالاً<sup>(٣)</sup>

يا اسلام ومسيحية اسمعوا لي ها القضية  
اهل الارض بطول وعرض يقولوا نجبا الحرية

\*\*\*

اهل الارض بطول وعرض يقولوا نجبا الحرية  
فليجبا نيازي وانور والجيوش الشاهانية

\*\*\*

اهل الارض بكاملها من اولها لآخرها  
تركيا الله يعمرها بجاه رب البريه

\*\*\*

بطل روح الاستبداد نادوها بكل البلاد  
زمان الماضي ما بينعاد الظلم نجومه مخفيه

وقد اشترك في هذا التهليل اشهر قوالي ذلك الحين كخليل الفغالي الشحروري

(١) ديوانه (١٩٢٢) ٢٧٥ (٢) جريدة لسان الحال ١ آب ١٩٠٨

(٣) الآداب في القرن التاسع عشر ( شيخو ) ٢ - ١٢٢

والياس الفران وسواهما . وللاول خمس دعاه صوت الحرية ومطلعه .

صوت البري من قاع بوسفور العميق لما وصل الله من اقوم طريق  
المجد ظلل حزب تركيا الفتاة وانتصر عهد الجديد على العتيق

\*\*\*

المجد ظلل حزب تركيا الفتاة والروح لبستها بعد ذاك المات  
والرب اوهبها علا ونصر وحياة من بعد ما كانت حزينه بائسه  
والمظالم راح بتخفقها خنيق

وقد ذكره الاب شيخو في منتخباته الدستورية . وكذلك ذكر « قرادية » للفران  
مطلعها .

كنت بأكبر بليه بسجن العبوديه

وبعض اقوال المهاجرين فلتراجع<sup>(١)</sup>

ولم تقصّر مصر في مشاركة سائر الاقطار العثمانية بهذا الابتهاج العام . على انه لا  
مناص للناظر المتعمق في الحوالمج الشعريه يومئذ من ان يلمح هنا كما لمح من قبل شيئاً  
من التفاوت بين النزعة المصرية الصميّة وغير الصميّة . فبينما ترى الاخيرة تقرّ  
الغبطة الدستورية بذكريات العهد البائد وماثر رجال الاتحاد، وتحوم دائماً حول ما كان  
يقاسيه الناس من ظلم واضطهاد . ترى الاولى هزجة بالعرش العثماني داعية الى توثيق  
عري الاخلاص له وقلما ترى فيها ما يشير الى اضطرابه او فسادة، وحال الرعية في ابان  
استبداده . وهذه قصيدة شوقي في الدستور العثماني<sup>(٢)</sup> ومطلعها .

بشرى البرية قاصيها ودانيها حاط الخلافة بالدستور حاميا

فهي فيض من الجبور ، وبشرى وضاعة بمستقبل زاهر ستقر له عيون العثمانيين  
ولكنها عند التحقيق قلادة يضعها في عنق السلطان - اثنان وخمسون بيتاً اكثرها يدور  
على السلطان وعمله العظيم في اعلان الدستور من مثل قوله -

اسدي البنا امير المؤمنين يدا جلّت كما جل في الاملاك مسديها  
وليس مستعظماً فضل ولا كرم من صاحب السكة الكبرى<sup>(٣)</sup> ومنشئها

(١) الآداب في القرن التاسع عشر ( شيخو ) ٢ - ١٦٠ - ١٦٢ ( ٢ ) الشوقيات ١

( ٣ ) اشارة الى السكة الحديدية الحجازية



إن الندى والرضى فيه وامرته      والله لاخير هاديه وهاديه  
خلافة الله في احضان دولتهم      شاب الزمان وما شابت نواصيها  
بل هو يعزو الى عبد الحميد قبول الدستور راضياً مرضياً وانه لو أراد لرفضه  
وأحدث حرباً أهلية عظيمة -

حققت عند مناداة الجيوش بها      دم البرية ارضاءً لباريها  
وهكذا يجري في مدحه وتبيان فضله      ولا يشير الا بيت واحد فيها الى رجال  
الدستور. وفي نهايتها ينهى العثمانيين ويشير الى حال مصر والى آماني المصريين فيقول -

يا شعب عثمان من ترك ومن عرب      حياك من يبعث الموتى ويحييها  
صبرت للحق حين النفس جازعة      والله بالصبر عند الحق موصيها  
ما بين آمالك اللائي ظفرت بها      وبين مصر معان أنت تدريها  
ومثل شوقي حافظ ابراهيم في قصيدته «تحية الاخلاص»<sup>(١)</sup> للامة العثمانية الدستورية  
ففيها يمدح السلطان عبد الحميد لاعلانه الدستور ومدّه سكة الحجاز . ويستهلها بقوله -

اثنى الحبيب عليك والحرمان      وأجلّ عبد جلوسك الثقلان  
أرضيت ربك إذ جعلت طريقه      أمناً وفزت بنعمة الرضوان  
وجمعت بالدستور حولك أمة      شتى المذاهب جمّة الاضغان  
ومنها مشيراً الى سرور الناس بالحرية -

ثلجت صدورهم وقرّ قرارهم      لما حلفت باوثق الأيمان  
يا يوم عاد النازحون لارضهم      يتسابقون لرؤية الاوطان  
لله كم اطفأت من نار ذكت      دهرأ وكم هدأت من اشجان  
هذا يطير الى «فروق» ومن بها      شوقاً وذاك الى ربّي لبنان  
خلعوا الشباب على البشير وأخلقوا      بالثم عهد خليفة الرحمن

وينتهي باللائمة على شريف مكة ويحمل عليه وعلى أعوانه حملة شعواء . وفي  
القصيدة وصف للحرية معشوقة الجميع وذكر خاص لشهر تموز (يوليو) شهر الدستور  
وتنّى أن يكون لمصر نصيب منه -

تمّوز أنت أبو الشهور جلالاً تمّوز أنت منى الاسير العاني  
هلاً جعلت لنا نصيباً علّنا نجري مع الاحياء في ميدان  
ابعد منك الآملون بما رجوا ونعود نحن بذلك الحرمان

وهي تدعو الى الوئام والاتحاد في ظل الهلال

وعلى غرار شوقي وحافظ أكثر نفثات المصريين الدستورية<sup>(١)</sup>. ومثلها ما نراه في  
الادب الجزائري والتونسي. ويقابلها من الجهة الاخرى نفثات الذين ذاقوا مرارة العهد  
الحميدي : ففيها كما أسلفنا يفترون الجبور بذكر الماضي، كما ترى في شعر ولي الدين يكن  
ومنه قصيدة في افتتاح البرلمان العثماني يقول فيها<sup>(٢)</sup>

بالامس كنا معشراً تبكي حالتنا المعاشر  
تقتادنا الايدي الاثيمة للسجون وللمقابر  
ويصول انصار المليك على الاكابر والاصاغر

ومنها مشيراً الى المجلس النيابي : -

لله قصرٌ شامخٌ مدّ النواظر عنه قاصرٌ  
قصرٌ به يعلو التساوي راس مأمورٍ وأمرٌ

وتجيش عاطفة الشكر في نفسه فيقول

يادهر شكرك واجبٌ يادهر ما في الناس كافرٌ  
لم يبق ظلمٌ يتقى دارت على الظلم الدوائر

هذا الميل الى مقابلة العهد الحاضر بالعهد البائد - الى ذكر المساويء التي كانت  
ترجع الناس وتؤلمهم تعظيماً لحسنات الدستور وبشاً لما كانت تكظمه الصدور تراه  
شائعاً في المنظومات الدستورية خارج الحلقات المصرية . وقد ذهب الشعراء في ذلك  
كل مذهب وهاموا في كل واد . ولا بدع فهم يعبرون عن شعور امة كانت ترسف  
بقيود الذل فجاءها فجأة من حطّم تلك القيود ، واطلقها حرة تنعم بسعادة الوجود .  
ولو اردنا ضرب الامثلة على هذه الظاهرة الروحية للمأثنا صفحات عديدة من قصائد

(١) راجع خطبة الشيخ علي يوسف ( المطبعة الادبية بيروت ١٩٠٨ )

(٢) ديوانه ( ١٩٢٤ ) ٥٦

الشعراء وخطب الخطباء ولكننا نكتفي هنا بأنموذج منها . وهو ابيات من قصيدة لسعيد باشا شقير قال فيها يخاطب الجند الذين تمّ على ايديهم اعلان الدستور

اليوم نرحُ احراراً بفضلكمُ      نغدو ونسي ولا همٌ ولا نصَبُ  
قد اطلق الحرّ من سجن اهين بهِ      وعاد للوطن المحبوب مغتوبُ  
فلاجواسيس تخشى من وشايتهم      ولا جرائد تأتيننا فترتعبُ  
ننام في الليل لا الاحلام تقلقنا      وننهض الصبح لاخوف ولا رعبُ  
كم بين حال اتتنا كلها طربُ      وبين حالٍ عدتنا كلها رهَبُ

ومثلها قول نقولا رزق الله من قصيدة مطلعها<sup>(١)</sup>

يا ايها الناس حيّوا ذلك العلما      وسبّحوا مانح الحرية الأئما

وفيها يطلب من الناس مناصرة عصبة الاحرار الذين احبوا البلاد ، وحرّروا العباد والدعاء لهم بالبقاء حتى تدوم للوطن هذه الآلاء. ثم يلتفت الى العهد الماضي فيقول

سواءكم العدل اخواناً سواسيةً      فليس يظلم فيكم غير من ظلما  
وليس يقصى اديبٌ عن مواطنه      ولا يضام عليم قال ما علما  
ولا يكافأ ذو مالٍ لثروته      ولا يجازي فقير فقره اثما  
ولا يقوم على الذلّ العزيزُ كمن      قد شقّه الداء حتى عاشر السقما  
لا يعبتن بحقٍ من حقوقكم      ذو سلطةٍ جاثٍ مها علا وسما

ومثل هذه الروح تظهر في الحفلات التي اقيمت لعيد الحرية سنة ١٩٠٩<sup>(٢)</sup>

\*\*\*

وسواء اكان الشعر العربي ممالئاً للعرش العثماني ام غير ممالىء فان الدستور القى عليه عموماً مسحة ظاهرة من الزهو والاستبشار اذ فتح للناس ابواب الرجاء فأصبحوا ينظرون الى المستقبل نظر الوثوق والتفاؤل . وكان الدستور عندهم شعار السعادة الفردية والقومية ومفتاح الرقي الاقتصادي والاجتماعي . شعور لذيذ هزّ القلوب حيناً ولكنه لم يطل

(١) الهلال ١٧ - ١٢٢

(٢) راجع من ذلك « عيد الحرية » لامين ناصر الدين في صدى المخاطر ٩٢

﴿ خلع عبد الحميد ﴾ والذي يلاحظ من دراسة الشعر ان هذا الجبور العام الذي عقب اعلان الدستور كان في اول الامر مقروناً بالثناء على عبد الحميد . ذلك لان الذين احدثوا الانقلاب لم يمسوا باديء ذي بدء عرشه ' فظلّ حيناً يتمتّع بنفوذٍ عظيم . على انه لما حدثت الفتنة الرجعية سنة ١٩٠٩ رأى الدستوريون ان في بقاء ذلك السلطان خطراً على نظامهم فخلعوه في ٢٧ نيسان من تلك السنة واجلسوا على العرش اخاه محمد رشاد . وبخلعه سرّت هزة شعرية لا تقلّ عن هزة الدستور : فتفجرت القلوب بما كانت تكتئه لشخصه ولعهده ، واخذ الشعراء في سوريا والعراق والمهاجر يتبارون في تعداد مساوئه . ومن امثلة ذلك قصيدة لفارس بك الحوري <sup>(١)</sup> مطلعها

الله اكبر فالظلام قد علموا لاي منقلب يفضي الاولي ظلموا  
لقد هوى اليوم صرح الظلم وانتقضت اركانها وتولّت اهلها النقم  
ومنها يخاطب عبد الحميد ساخراً به ذا كراً مجد اسلافه

شادوا لك العزة القساء من قدم فجئت تهدم ما شادوا وما رسموا  
كانت لهم دولة بالسيف ناهضة وفي زمانك لا سيف ولا قلم  
حصدت ما زرعوا فرقت ما جمعوا هدمت ما رفعوا بعثت ما نظموا  
وهي طويلة وكلها من هذا النفس البليغ . وأشد منها تشفيّاً قول احد شعراء المهجر من قصيدة نشرتها جريدة مرآة الغرب <sup>(٢)</sup>

مضى عبد الحميد الى مكان رمت فيه أم قشعم الرحالا  
مضى وله بفعل الشر ذكر محاذير الى كانوا مثالا  
ملك قد تسربل بالخمازي وعم الارض غدراً واحتيالا  
امير المؤمنين دعوه زوراً فكان الذئب لم يعرف حلالا  
عدو الدين والاسلام هلاً علمت بان في الدنيا زوالا

ولمعروف الرصافي في ديوانه قصيدة معروفة يصف فيها زحف الجيش من سلاطيك على الاستانة وخلصهم عبد الحميد تأييداً للحرية وحفظاً للدستور . ومطلعها -

لقد سمعوا من الوطن الانينا فضجّوا بالبكاء له حيننا

(١) راجع القصيدة في المقتبس ٦-١٣٧ (٢) الآداب العربية في القرن التاسع عشر (شبخو) ١٨٥

وناداهم لنصرته فقاموا جميعاً للدفاع مُسلّحين  
ومنها مشيراً الى زحف الجيش وارغامهم أنوف الرجعيين -

أتينا دار قسطنطين صباحاً      وقد فتحت لهم فتحاً مبيناً  
وظلّ الجيش جيش الله يشفي      بحدّ سيوفه الداء الدفين  
فأرهمق انفس الطاغين حتى      سقامهم من عدالته المنونا  
وحطوا قصر يلدز عن سماءٍ      له فأنحطّ أسفل سافلين  
هوى عبد الحميد به هويّاً      الى درك الملوك الظالمين  
وفي ختامها - واسقط ذلك الجبار قهراً      وأنبأه بصارمه اليقين  
فقرّت عين الدستور أمناً      وشأهت أوجه المتمردين

وله في ذلك قصيدة اخرى اسمها « وقفة عند يلدز » وهي لا تقلّ عن اختها مضاءً .  
وفيها يخاطب الشاعر قصر يلدز بعد ان سقط صاحبه ( عبد الحميد ) وارسل سجيناً الى  
سلانيك ، فيذكر ما كان له من مساوئ ومظالم ويختم القصيدة بنفثة فخرية حماسية  
فيقول -

إنّا نحن امةٌ تدرأ الضيم ولا تستكين لوالٍ  
امّة سادت الانام وطابت      عنصراً من اواخرٍ واوالٍ  
فاذا ما علا الغشوم نهضنا      فقدفناه سافلاً من عالٍ  
نحن من شعلة الجحيم خلقنا      لأولي الجور لا من الصلصالِ

وهنا نعمله الحماسة الى اقصى مدى فيهدد طغاة الانام جميعاً منذراً إياهم بسوء المصير  
فيقول -

يا ملوك الانام هلاً اعتبرتمْ      بملوك تجور في الافعالِ  
فاتركوا الناس مطلقين والا      عشم موثقين بالاوجالِ  
وعلى هذا الفرار كثير من ادب ذلك العهد<sup>(١)</sup>

\*\*\*

تلك كانت عواطف الشعر العربي في العراق والاقطار السورية والمهاجر . اما في

(١) راجع الكاظمي في كتاب آداب العصر لسمد ١٨٣ والقروي في ديوانه الرشديات ٩١  
ووديع عقل في ديوانه ٨٥ . وبشاره الخوري - في الآداب العربية لشبخو باب الحماسة الدستورية

مصر او في الاوساط المصرية الاصيلة فمن الطبيعي ان لا نتوقع هذا الاندفاع في الحل على عبد الحميد والتهليل لسقوطه . فالمصريون او بكلمة اصح فالشعر المصري قد قابل خلعه برعشة مقرونة بالعطف والشفقة . وذلك على ما يظهر لسبيين رئيسيين . (١) لما ذكرناه سالفاً من ان المصريين الحديثين لم يذوقوا من الادارة الحميدية ما ذاقه اخوانهم في الاقطار الاخرى . (٢) لانهم كانوا ازاء احتلال اجنبي قد اثار حفاظهم الدينية والجنسية فليس من الوفاء الوطني وقد جاهدوا مراراً بمودتهم للعثمانية ان ينقلبوا على الخليفة الآن ويحطوا من شأنه امام الاجانب وقد كانوا الى الامس يعظمونه ويدعون له . فليس غريباً اذن ان تظل علاقتهم بعرش الخلافة حية فعالة ، وان يكونوا اعطف على الهاوي عنه واقرب الى الصفع عن سيئاته . وعلى ذلك نرى شوقي يقول في قصيدته « سل يلدزا ذات القصور »<sup>(١)</sup>

خطبُ الإمام على الخَظيم يعزّ شرحاً والنشير  
شيخ الملوك وان تضعضع في الفؤاد وفي الضمير  
نستغفر الله له والله يعفو عن كثير  
وزراه عند مصابه اولى بباكٍ او عذير

وانظر الى روح العطف كيف يظهر في قوله مخاطباً عبد الحميد

عبد الحميد حساب مثلك في يد الملك الغفور  
ماذا دهاك من الامور وانت داهية الامور  
دخلوا السرير عليك يحسبون في ربّ السرير  
اعظم بهم من آسرين وبالخليفة من اسير

وكما كان طبيعياً ان يتلبس شعر شوقي بثوب الوفاء للسلطان والعطف عليه كان طبيعياً ايضاً ان نرى شاعراً كولي الدين ذاق ما ذاق من احوال الاستبداد يعارض قصيدة شوقي فينظم قصيدة<sup>(٢)</sup> على وزنها ورويها مندداً بعبد الحميد معدداً سيئات حكمه كقوله :-

ان الثلاثين التي مرت بنا مرّ العصور  
وهبتك تجربة الامور فعشت في جهل الامور

من كان يدعوك الخبيرَ فلست عندي بالخبير  
ويقول مشيراً الى شوقي وطبقته متأماً من عطفهم ومسيئاً الظن بعواطفهم

لما اذيل عن السرير بكاه عبّاد السرير  
أسفوا عليه وانما أسفوا على المال الدير  
طلبوا له عفو الغفور وشدّ عن عفو الغفور

وما نراه في شعر شوقي نراه في شعر حافظ واسماعيل صبري واحمد نسيم وسواهم  
ويشارك مصر في هذا العطف سائر الاقطار الافريقية<sup>(١)</sup> ونود ان نشير هنا اشارة خاصة  
الى قصيدتين لحافظ<sup>(٢)</sup> فالاولى مطلعها

لا رعى الله عهدا من جدود كيف امسيت يا ابن عبد المجيد  
ومنها - شمت المسلمون قبل النصارى فيك قبل الدروز قبل اليهود  
شتموا كلهم وليس من الهمة ان يشمت الورى في طريد  
انت عبد الحميد والتاج معقود وعبد الحميد رهن القيود  
خالد انت رغم انف الليالي في كبار الرجال اهل الخلود

وهذه القصيدة ، برغم ما يتخللها من ذكر بعض المساوىء الحميدية ، مرتبطة بشعور  
واحد هو شعور العطف والوفاء لخليفة

ولي الامر ثلث قرن ينادي باسمه كل مسلم في الوجود

على ان هذا العطف اخذ يخف في شعر حافظ وهانحن نراه في العيد الدستوري  
الاول ينشد قصيدته التي مطلعها «اجل هذه اعلامه ومواكبه» فيذكر محامد الدستور  
وماآتي محمود شوكت ونيازي وانور . ويقف على يلدز واصفاً ما اصابه ، معدداً اوهام  
صاحبه واخطاءه ثم يقول

سلوه أأغنت عنه في يوم خلعه عجائبه او احرزته رغائبه  
واخرجه من يلدز رب يلدز وجرده من سيف عثمان واهبه  
واصبح في منفاه والجيش دونه يغالب ذكرى ملكه وتغالبه  
يناديه صوت الحق ذق ما اذقتهم فكل امرىء رهن بما هو كاسبه

مضى عهد الاستبداد واندك صرحه وولت افاعيه وماتت عقاربه

واذا تابعا حافظاً في قصيدته هذه التي نظمها بعد خلع عبد الحميد بنحو ثلاثة اشهر  
وجدنا ان تحول عطفه عن ذلك السلطان لم يخفف من ولائه للعرش العثماني والخلافة  
الاسلامية فهذا العبد يستخفه لمدح السلطان الجديد محمد رشاد وتعظيم عرشه فيقول -

لتهني امير المؤمنين محمداً خلافته فالعرش سعد كواكبه  
ستملك امواج البحار سفينه كما ملكت شم الجبال كتائبه  
بمالكه محروسة وثغوره ركائبه منصوره ومراكبه





# الدستور

## والروح الوطنية

مما ذكرناه آنفاً يتضح ان ما ندقق به الشعر الدستوري من عواطف الجبور والتهليل راجع بالاكثير الى ما نشأ في نفوس العثمانيين عموماً والعرب خصوصاً من ايمان ثابت باخلاص الدستوريين ورجاء حيٍّ بحسن المصير . فكنت تراهم على شبه يقين من انهم اصبحوا ابناً لدولة عظيمة تحبهم وترغب في تقدمهم ذلك الايمان وذلك الرجاء بعثا في الشرق العربي روحاً جديدة ايقظت القلوب واضمرت فيها الشعور بالفخر والكرامة الذاتية فألبست الادب حللاً قشبية من الجمال . وقد ظهر ذلك في مظهرين رئيسيين هما الاعتزاز بالوطنية، والدعوة الى الاتحاد القومي . واليك البيان مما اختبرناه بأنفسنا وعرفناه من اختبار الآخرين

﴿ الاعتزاز بالوطنية ﴾ اشرفنا في فصل سابق الى ما كان للحرب الروسية اليابانية ١٩٠٥ من اثر في تخمير الشرق العربي بروح الكرامة الشرقية . وقلنا ان ذلك لم يكن الا سبباً تمهيدياً لحركة اعمق واوسع نطاقاً . وقد بدأت هذه الحركة فعلاً عقب اعلان الدستور . وسنرى كيف تطورت مع الزمان . وكيف تغيرت اشكالها في شتى البلدان .

ولا يخفى ما كان للاجانب في السلطنة العثمانية من نفوذ سياسي واقتصادي وفكري . فهم اصحاب الامتيازات وفي معاهدتهم نشأ سواد المتعلمين ، فلا بدع ان يتولد في نفس الشرقيّ ازاءهم ما يسميه علماء النفس بركب النقص او بالصغار الذاتي<sup>(١)</sup> ، حتى صار عند الجمهور كل شيء غربي افضل من كل شيء شرقي ، ناجرهم اصدق ، وعالمهم اعلم ، وصانعهم احذق ، بل وعنصرهم اشرف وارقي . وجرى ذلك بين الناس في الشرق العربي والقوه حتى صار جزءاً من كيانهم النفسي . على ان النهضة العلمية اخذت منذ

القرن الماضي تعمل على اضعاف هذا الشعور ، فنشأ بين المفكرين من اثار على «الصغار الذاتي» حرباً شعواء داعياً الناس الى احترام النفس واکرام الوطن. كقول احدهم<sup>(١)</sup> « كيف نؤمل نجاح صناعتنا وتأخر صناعتهم في بلادنا حال كون كل عربي يمدح صناعتهم ويظعن في صناعة بلاده ، ويفضل ما كان افرنجياً مهما كان » . وقد نظر الكاتب هنا الى الوجهة الاقتصادية وهاله ان يرى تأخر الوطني لتأصل فكرة سقيمة فيه . ومنهم من نظر الى الوجهة الاجتماعية او الروحية فآله ان يرى ما يسود الناس من اعتقاد بأفضلية الغربي وتفوقه الفطري على الشرقي . فقال<sup>(٢)</sup> « ام لا ترى انك لو عنيت بأمر قومك عنايتك بالاجنبي تقوم بأمره وتولع بشكره ، لما لبثت ان ترى منهم من يبلغ شأوه وان كان رفيعاً ، ومن يدرك سعيه وإن كان سريعاً »

وعرف الغربيون ذلك الشعور في الشرقيين فاستغلوه بل تآدوا في استغلاله حتى صاروا لا يتورعون عن التثامخ على بني الشرق وامتهانهم في عقر دارهم. فمن الطبيعي ان يولد ذلك في نفوس الأباة من الشعراء والكتبة « رد فعل » يظهر في منظومهم ومنثورهم كما ترى في قصيدة للزهاوي قالها قبل الدستور ومنها<sup>(٣)</sup>

كفى الغرب فخرأ انه متقدم	وان له مالا به يتنعم
وان له في البر جيشاً عرمرماً	يمائله في البحر جيش عرمرم
ترقى فلما اشتد ساعده عتا	وبات يغيظ الشرق والشرق يكظم
يطيل على اجحافه بحقوقه	سكوتاً كان الشرق ليس له فم
فيا أيها الغرب المدل بنفسه	رويدك ما هذا الغرور المذم
أتزعم ان الشرق يلبث صاغراً	أمامك مغضوباً وانت المكرم
وتبقي عليه هكذا متسيطراً	تصدم الاموال منه وتهضم

والقصيدة حواري ثلاثين بيتاً وكلها على هذا النسق من التبرم بهذه الحال ويتخللها فخر بالماضي وأمل بالمستقبل . وعلى هذا النسق اقوال كثيرة<sup>(٤)</sup> وظل الامر كذلك الى اوائل القرن الحالي حين أخذت الحضارة الجديدة تعم البلاد وحين توفّر الشرقيون على دراسة العلوم الحرّة ، فعرفوا ما لهم وما عليهم .

(١) سليم البستاني . مجالي الفرد (١٩٠٦) ١٠٠ (٢) أديب اسحق في الدرر ١٢٨

(٣) ديوانه (١٩٢٤) ٢٩٣ (٤) راجع ديوان احمد نسيم ١ - ١٣ و٧١ وديوان

مصطفى الرافي ١ - ٢٦ ومتفرقات في ديوان محمد عبد المطالب

وكبرت نفوسهم فصارت الطبقة المثقفة منهم تشعر بوجودها، فيسئوها ما تراه في الوطن من اثره أجنبية وتحاول القضاء عليها بشتى الوسائل ولا سيما باحياء الروح الوطنية . على انها كانت تصطدم بالامتيازات الاوربية . ويفت في عضدها خنوع الدولة للاجانب وجهل العامة معنى احترام النفس والوطن . وقد زاد الطين بلة تلك النعرات الطائفية وما ولدته من ضغائن وخاوف ، مما فتح الباب لتدخل الاوربيين بحجة حماية الاقليات ، وبالتالي لازدياد نفوذهم الروحي والسياسي وشيوعه في جميع انحاء الشرق

فلما اعلن الدستور وارتفع الضغط المضني عن اللسن والصدور ، اتقد الشعور الوطني انتقاداً لم يعهد من قبل واخذ الادب العربي يتغنى بالقومية تغنيّاً غريباً اشتركت فيه جميع العناصر والطوائف . ولما كانوا لا يفرقون يومئذ بين الكرامة الشرقية والكرامة العثمانية ، بل ذهبوا الى ابعد من ذلك في حماسهم الدستورية فقلبوا للاجانب ظهر المجنّ ورفعوا الهلال العثماني الى اوج التعظيم .

وقد كان شيء من ذلك قبل الدستور ولكنه لا يقاس بما وصل اليه بعده والذين ادركوا ذلك العهد لا ينسون قط تلك الهبة القومية التي كان لها في نفوس الشبيبة فعل المسكرات فأثمتهم حتى نسوا مساوىء العهد السابق ، واطلقوا لاقلامهم وألسنتهم العنان فجرت في هذا المضمار جري السوابق . فلا تستغرب اليوم اذا قرأت لاحد ادباء بيروت المسيحيين الاصلاحيين قوله من خطاب القاه في الاسكندرية<sup>(١)</sup> : —

« ليتجهج العثمانيون فقد نشر الدستور ، وجاء اليوم الذي التّم فيه شعث الامة العثمانية وتآلفت اعضاؤها ، وتآخت اجزاؤها . فكلنا بنعمة الدستور عثمانيون — عثمانيون لا نعرف غير هذا اللقب لقباً ، ولا نتخذ سواه نعتاً . عثمانيون قبل كل شيء . عثمانيون طول الحياة . عثمانيون مذهبنا الحرية وشعارنا الوطنية وفخرنا الراية المملالية وملجأنا الدولة العلية »

ومثله ما جاء في لسان الحال من افتتاحية<sup>(٢)</sup> : قال الكاتب يصف حالتنا الاجتماعية والروحية قبل الدستور ويقابلها بما صارت عليه بعده — « لم يكن حالنا حال المريض فقط . بل لا نجازف اذا قلنا اننا كنا قد بلغنا حال المحتضر . وطال هذا الدور ( اي دور الاحتضار ) الى ان ائانا الدرياق فنشطنا من عقال الحمول ووثبنا وثبة الاسد من العرين » وبعد ان يصف هذه النهضة يشير الى علاقة الوطنيين بالاجانب فيقول ( وهو

من المعروفين باعتماد المنهج ) - « وسيرى الغريب من الفرنجة وغيرهم كيف يعاد مجد الامم وتتجدد حياتها بقوة افراد رجالها »

وقال احد الكتبة المسلمين<sup>(١)</sup> واصفاً ما كانت تقاسيه الدولة من السياسة الاوربية - « ان الدول كانوا يواصلون الضغط على جسم المملكة العثمانية ويضاعفون السعي لايقاع الشلل في عروقها الكثيرة الشعب . ولكن قضى ربك ان يرد كيد اولئك المتسابقين الى نهش هذا الجسم المتضعع الى نحرهم ، وتعود العثمانية بفضل الدستور قوية الشكيمة تقف في وجوههم وقفة الرئال لا جزعة ولا فزعة »

وعلى هذا المنوال نسج كثير من المقالات والخطب وكلها تشير الى ما كان يملأ النفوس من النعمة على الاجانب او على الاقل من الامل بنهوض الدولة فيسترد ابناؤها ( الترك والعرب على السواء ) مجدهم الغابر ولا يضطرون بعد ان يقفوا امام الاجنبي وقفة الضعيف امام القادر .

اما الشعر فحدث عن اتقاده الوطني ولا حرج . فيه اشتركت جميع الاقطار العربية والمهاجر حتى لبنان فانه برغم استقلاله الذاتي ورغم اتجاهه نحو الغرب علقته به شرارة من ذلك اللميب فكان من ابنائه في الوطن والمهجر شعراء يهزجون بتعظيم الانقلاب والاستبشار به ، ويهللون للعرش العثماني وابطال الحرية . ومن اراد الاطلاع على ما قيل في هذا الباب فليرجع الى الصحف العربية في العامين ١٩٠٨ و ١٩٠٩<sup>(٢)</sup> وبما لا ريب فيه ان الشعر الدستوري في السنتين المذكورتين مفعم بروح التفاؤل شديد الحماسة للكرامة الشرقية والجامعة العثمانية . سواء في ذلك المسيحي والمسلم ، الناقم على سياسة عبد الحميد او غير الناقم . ومن امثله هذان البيتان لسعيد شقير من قصيدته المار ذكرها -

لازلت يا جيشنا فخرأ لامتنا وحظاً اعلامك الاجداد والغلب  
ترقى المعالي وتوكلنا لنا وطن للجز والمجد فيها ترفع القب

والايات التالية من قصيدة للدكتور نقولا فياض<sup>(٣)</sup>

يا بني عثمان انا امة اصبحت موضوع اعجاب الامم

(١) طه المدور في لسان الحال ٢٢ شباط ( فبراير ) ١٩٠٩

(٢) راجع خصوصاً المشرق ( بيروت ) (٣) راجعها في مجلة الهلال ١٧ - ٨٧

سعيد العدل تاريخاً لكم طبع المجد به منذ القدم  
في حمى جيش عزيز باسلٍ واسع النعمة كشاف الغم

وبعد ان يصف حماة الدستور الاحرار وفعالهم المجيدة وخوارج الامة يلتفت الى الغرب وعلاقته بتركيا فيقول : -

قل لاهل الغرب عنا حسبكم ان للاتراك بأماً وكرم  
حرروا الشرق وذوي افعالهم جددت صوته بعد الهرم

وكانه يرى ما كان يراه كثيرون من ان الاجانب سبب التفريق بين الشرقيين فيقول :

ولمن يطمع في تفريقنا كان للتفريق عهدٌ وانصرم  
غير دين الحب لا دين لنا نحن في البؤس سواءً والنعم

ولعل الابيات التالية تمثل نزوات الشباب الوطنية عهدئذ وعصيتهم الشرقية الثائرة . وهي من قصيدة تليت يوم افتتاح « المبعوثان » ( البرلمان العثماني )<sup>(١)</sup> وتصف تألم الشرقيين من غطرسة الغربيين وشعورهم ان العهد الجديد سيضمن للشرقي حقوقه وكرامته . تبدا بذكر ما كانت عليه مصر وسوريا وما كان يعانيه اباء الضيم فيهما وفي سائر الاقطار العربية من صلف الاجانب حتى يحمل الناظم شعوره الى قوله : -

أترضي الذل من أيدي نقيبها كأنها للهدى والدين معتصم  
ونحن نحقر في القطرين سيدنا ونكرم الزعنف الصعلوك بينهم  
دأب سرى في دم ابن الشرق فانقلبت أهله لا همم فيهم ولا شيم

ويتقدم من هنا الى ذكر الانقلاب الدستوري وانبثاق النور الجديد من العرش العثماني وان هذا النور سيجلو ظلمات الهوان عن البلاد وسيربطهم معاً برابطة الوطنية الحقة والولاء لصاحب العرش . ثم يلتفت الى الغرب فيقول متحمساً

لظي من النيل للدانوب متقدً الى العراق الى البحرين ملتهم  
ان يكرمونا فان الشرق يكرمهم او يحقرونا فان الشرق منتقم

وبما يلاحظ ان هذه الحماسة كانت شديدة الاتقاد في شعراء المهاجر . كقول احدهم<sup>(٢)</sup>

حسب الغرب هبة الشرق نوماً ورماها بأنها وهميٌّ  
كذب الغرب ان في الشرق قوماً بشفار الصمصام شقوا الدجيَّ

وليس ما قدّمناه الا نماذج قليلة من الشعر الوطني الذي انشأه الامل الدستوري في الاوساط الادبية المسيحية، فما قولك بالاوساط الاسلامية وما نشأ فيها من حماسة شعرية وما اثارته من عواطف قومية والمسلمون عموماً اكثر ميلاً الى العثمانية واشد نفوراً من السيطرة الاجنبية

ومن الخطأ الفادح ان يُساء الظن بتلك العواطف الوطنية وان يقال انها لم تكن الا من قبيل التزلف او المداهنة . قد تكون عواطف مغترّ او سكران ولكنها كانت يومئذ تخرج من قلوب كان كثير منها طافحاً بالامل والاخلاص . واليك تركيبة لذلك قول أستاذ عرف ببعده نظره وترويه في الامور . فقد نشر له 'المقتطف خطبة' اختارها من بين كثير من خطب ذلك العهد اذ رآها من ادل ما انشأ في وصف تلك الحالة<sup>(١)</sup> . وقد جاء فيها وصف دقيق لحالة العثمانيين قبيل الدستور كقوله - « كنا منذ بضعة اسابيع والصدور ضائقة بما فيها والنفوس واجمة من هول ما ترى من موقفها ، والعقلاء النزهاء لا يدرون ماذا يصنعون ولا ماذا يقولون . وكأنا اطبقت عليهم السماء او سدّت عليهم منها منافذ الرحمة . وبيننا نحن في هذه الظلمة المدهمة وفي حال من اليأس والقنوط ما شهدنا مثلها ولا آباؤنا الاولون سطع علينا بغتة نور القانون الاساسي فأشرقت على آثاره شمس الحرية الشخصية والحرية القومية والحرية الفكرية الادبية ، ثم يتقدّم الى شرح معنى الدستور وتأثيره حتى يصل الى قوله - « ترون بما ذكرته في بيان حقيقة الدستور اني لا ارى ان افراحنا به صيانيات تافهة ولا احتفالاتنا ومظاهراتنا الخارجية تكزّمة له ولجانه تهوّسات ضارة . بل هي مهما بلغت مع القصد والحكمة قليلة في جنب اهميته ومقدار قيمته . وايّ قيمة اعظم من قيمة الحياة - حياة الفكر والقول والعمل المشروع للفرد ، وحياة العزة والقوة والتوازن والاستقلال والاستبسال للامة . فمن اراد الحياة فليقل ليحيى الدستور العثماني والقائمون به ومن اراد الموت موت الذل والصغار والاستعباد فلا رحمه الله . وليمت هذا الشخص من بين جماعة العثمانيين الحرّة »

وقد شعر الاستاذ كما شعر اكثر العقلاء يومئذ بطغيان ذلك التيار الوطني وخشي كما خشوا ان يقود الى الغرور والتهور او ان يستغله اهل المآرب فناشد الناس قائلاً « دعوا التسرع فان تسرعكم لا يفيدنا الآن وان كنتم اخلص المخلصين واغير اهل الغيرة الحققة على شرف العثمانية ومصصلحة العثمانيين . انا في حاجة الى المخلصين اصحاب العلم والخبرة الذين قبل ان يقولوا يفكرون ويتروون وبعد ان يقولوا يفعلون كما يقولون . مثل هؤلاء تطمئن اليهم نفوسنا ونسلم اليهم قيادنا وتديبرنا »

ومن ظواهر الاعتزاز بالوطنية في ذلك الحين تلك الغارات الشعواء التي شنتها الشعراء على بعض الدول الاوربية لتعديها على بعض الممتلكات العثمانية وضمتها نهائياً الى املاكها . كما فعلت النمسا بالبوسنة والهرسك ، واليونان بكريت . ثم ما فعلته ايطاليا بطرابلس الغرب : فكان شعراء العربية على اختلاف فحولهم ومنازعهم يداً واحدة على المعتدين . وكان شعرهم غالباً كالبحر الثائر يرمي صخور الشاطئ بالزبد الصاخب . كقول شبلي ملاط من قصيدة وطنية<sup>(١)</sup>

الا من يبلغ النمسا كلاماً	نسجته ونورته البينا
بان عهدوها كانت سراياً	وكان ودادها ( بلفاً ) مينا
فلا تجد السنون الى التصافي	سبيلاً ما تعاقبت السنونا
او النمسا تكفر عن ذنوب	جنتها فاغتدت عاراً وهونا
اتحسب جارة الدانوب اننا	نذل لمثلها ابدأ جينا

ولا ريب ان الشاعر كان في هذه الابيات يعبر عن الشعور العام في المملكة العثمانية ، وقلماً خطر يومئذ بباله ان « جارة الدانوب » ستصبح عن قريب حليفة الدولة العثمانية في الحرب العالمية . وفي حادثة كريت كان من تحمس العثمانيين عموماً ما حمل شاعراً لبنانياً آخر على نظم قصيدة بدوية النزعة ومنها<sup>(٢)</sup> :-

اظنّ بنو اليونان ان سيوفنا تثلمن ام اخنى علينا التأخر  
الم يذكروا بالامس ما كان بيننا على حين خضنا الموت والموت يزخر

لعله يشير بذلك الى الحرب اليونانية العثمانية سنة ١٨٩٧

(١) راجع شيخو ١٧٢ (٢) لامين ناصر الدين راجعها في ديوانه صدى الحاضر تحت

موضوع غادة كريت ص ٢٥ وكذلك في شيخو ١٩١ على ان في الروايتين بعض الاختلاف

صدمناهم تحت العجاجة صدمةً كما راع اسراب الظباء غضنفر  
وكان لنا معهم وقائع لم تزل احاديثها في الخافقين تكرر  
ومنها يخاطب اليونان : -

تحيّنتم وقتاً توالى خطوبه لادراك امرٍ نيله متعذّر  
وخلتم توالي الظلم اورث شعبنا خمولاً واصبحنا على الهون نصبر  
قهرناكم والملك قد كان ذاوياً فكيف وروض الملك فينان اخضر

أي قهرناكم أيام عبد الحميد والدولة في حال البؤس فكيف الآن وهي زاهية بعهدا  
الدستوري الجديد

فما ضم إكرتٍ بسهل فدونه صدام الرزايا والهلاك المقرّر<sup>(١)</sup>  
ولشاعرنا اللبناني نفثات كهذه في حوادث البلغار وأدرنه وحرب طرابلس الغرب  
وغيرها من الوقائع السياسية التي كانت مثاراً للخواطر قبل الحرب الكبرى  
ومثل ذلك تجده في الشعر العراقي . فالرصافي مثلاً ، وقد عرفنا انه كان قبل  
الدستور من الاحرار أو الناقمين على سياسة الحكومة الحميدية ، اصبح بعده من المغالين  
في نصرتها ، المتحمسين في مقارعة أعدائها . وله قصائد رائعة يستنهض فيها المسلمين الى  
الجهاد ذوداً عن الوطن العثماني كقوله من قصيدة في الحرب الطرابلسية موضوعها  
« الى الحرب »<sup>(٢)</sup>

ألا انهض وشمّر ايها الشرق للحرب وقبّل غرار السيف واسل هوى الكتب  
ولا تغترر ان قيل عصرٌ تمدّن فان الذي قالوه من اكذب الكذب  
الست تراهم بين مصرٍ وتونس اباحوا حمى الاسلام بالقتل والشهب  
وما يؤخذ الطليان بالذنب وحدهم ولكن جميع الغرب يؤخذ بالذنب

وله اشدّ من ذلك في هذه الحرب وفي ادرنه والبلقان وسواها . والظاهر ان اقامته  
في الاستانة قد اثرت كل التأثير في الناحية القومية الدينية من نفسه . فلما نشبت الحرب  
العالمية وخاضت غمارها تركيا الى جانب المانيا والنمسا اخذته الحميّة الدينية كما  
اخذت كثيرين سواه فنظم قصيدة موضوعها « الوطن والجهاد » يدعو فيها المسلمين

(١) والظاهر ان هذا البيت حذف من القصيدة في صدى المطاير (٢) راجعها وراجع  
امثالها في باب الحريات من ديوانه (بيروت ١٩٣١)



الى قتال اعداء الوطن والدين (اي الخلفاء). ولكي يدرك القارىء ما كان يسود بعض  
الاوراسط العربية في ذلك العهد ( اي قبل ان تبدل الحال بظهور الدعوة العربية  
والثورة الحجازية ، ) ننقل له منها بعض ابياتها الاولى - قال : -

يا قوم إن العدى قد هاجموا الوطناً فانضوا الصوارم واحموا الاهل والسكناً  
واستنفروا لعدو الله كل فتى ممن نأى في اقاصي ارضكم ودنا  
واستنهضوا من بني الاسلام قاطبة من يسكن البدو والارياف والمدنا  
واستقتلوا في سبيل الذود عن وطن به تقيموت دين الله والسنا

وبعد ان يجري شوطاً في هذا المضمار يلتفت الى مصر فيندد بحكومتها ( او قل  
بسلطانها يومئذ ووزارته ) لجاراتهم الانكليز والانتقباد لسياستهم . ويعود بعد ذلك  
الى الوطن والدعاء له فيقول

لازلت يا وطن الاسلام منتصراً بالجيش يزحف من ابنائك الأمتنا  
إننا نحبك حباً لا انتهاء له يستغرق الارض والاكوان والزمننا

وينخص العراق بالقسم الاخير من القصيدة وما اشيع عن اقتراب العدو منه ،  
فيحض العراقيين على الاستبسال في صدّه -

إن العراق لعمر الله مسبعة توائب الأسد فيها من هنا وهنا  
هم المغاوير ان صالوا بملحة فلا يرون لهم غير المنوت مني

ويجري مجرى الرصافي من شعراء العراق رضا الشبيبي ومحمد حبيب العبيدي ،  
وخيري الهنداوي ، ومحمد الحسين كاشف الغطاء ، وعبد العزيز الجواهري وسواهم ممن  
نفخ فيهم الدستور روحاً جديدة فحملهم على مناصرة الخلافة والتهجم على اعدائها في  
اوروبا، واضرم فيهم النعرات الشرقية والدينية، حتى قال احدهم من قصيدة موضوعها  
« بعد حرب الطليان والبلقان » (١).

اظهر الغرب ما اجن من الغدر - وابدى كوامن الاضغان  
واحاطت بالمسلمين علوج البغي - من كل جانب او مكان  
ايها المسلمون هبوا فليس الموت - الا حياتكم بهوان

(١) محمد كاشف الغطاء . راجعها في كتاب الادب المصري في العراق لروفاثيل بطي الطبعة

قد دهاكم ويلٌ فماذا التماذي وأتاكم سيلٌ فماذا التوافي  
جاءكم جارف من الغرب تيارٌ - يهدّ البنا وأسّ المباني

ولحبيب العبيدي قصيدة اسمها « ألواح الحقائق » القاها في المنتدى الادبي العربي في الاستانة بعد خطاب له في الحرب الطرابلسية وهي تقرب من خمسمائة بيت وقد ضمّنها أهمّ الحوادث التاريخية من عهد الرسالة الى زمن انشادها<sup>(١)</sup>. وبما نقل الينا منها يصح ان نحكم انها تعبر تعبيراً جلياً عن هذه الهبة المعنوية في نفوس الشرقيين وعن أمانيتهم في ارجاع مجدهم الغابر ونفض ما كان قد لحق بهم من عار التأخر - كقوله -

كيف ترضى يا شرق ان يمشي الغرب اماماً وانت تمشي وراءُ  
أفلم يأنّ ان تجدد عهداً شهد الصبح فضله والمساءُ  
أنسام الهوان دون المنايا انما الموت والهوان سواءُ

وهو يصل هذه النهضة الشرقية بمجد العرب الاقدمين ويختتمها بذكر مفاخرهم التاريخية . ويدعو بني الشرق عموماً الى النهوض والجري في سبل العلى والتقدّم . ومثل ذلك خيرى الهنداوي في قصيدته « ايها الشرق »<sup>(٢)</sup>، وقصيدته « فتاة سلايك »<sup>(٣)</sup> ومن هذه الاخيرة قوله متألماً -

أمّ البلاد أضاعك الاقوامُ فبكي مرابع مجدك الاسلامُ  
يا ايها الشرق الذي قد عمته للغرب من بعد الشروق ظلامُ  
ما الغرب اوّل ظالم لك بالذي يأتيه بل ابساؤك الظلامُ  
قد أهملوك وانت معقل عزّهم فاستهونتك بوطئها الاقدامُ

ولقد يجوز ان نشتم بعض شعراء ذلك العهد بمداينة الاتراك وان شعرهم لذلك لا يعكس لنا الشعور العربي الحقيقي . وهنا نكرّر قولنا اننا انما نؤرخ العواطف العربية كما تظهر في نغاث أدباء العرب الشعرية ، ومهما تكن الاغراض النفسية وراءها فذلك لا ينفي حقيقتها وانها ناشئة عن الحوادث متصلة بالشعور العام . والحقّ يقال ان ما اختبرناه بأنفسنا ، وما عرفناه من اختبار الآخرين يدفعنا الى تنزيه كثير من الشعراء يومئذٍ عن المداينة المقصودة ، ويميل بنا الى ان نعزو عثمانيتهم الى ما أثارته الاحداث

(٢) الادب المصري ١ - ١٦٦

(١) راجعها في الادب المصري لبطي ١ - ١٦٨

(٣) الادب المصري ١ - ١٧١

السياسية من شتى النعرات في نفوسهم<sup>(١)</sup>

ففي أوائل العهد الدستوري كانت الشعر العربي في سوريا ومصر والعراق مجلياً لالوان من الوطنية غير واضحة الحدود . ولكن كما ان ألوان الطيف اذا مزجت معاً كوّنت شيئاً واحداً هو النور . كذلك تلك الالوان العاطفية من دينية او قومية مرجعها واحد هو الاحساس الحادّ بكرامة شرقية لم يعدها الشرقيون او العرب منهم قبل ذلك العهد . وقد كان لنشوة الدستور يدٌ في تعميق ذلك الاحساس والباسه حيناً لباس الجامعة العثمانية . وكانت تلك النشوة على اشدها في السنة الاولى من اعلان الدستور ايام كان الناس لا يزالون يطفرون فرحاً بزوال الاستبداد ، وينظرون الى المستقبل بعيون التفاؤل والاستبشار ، ثم اخذت بالتراخي تدريجياً

على ان النزعة الشرقية المصطبغة بالصبغة العثمانية ظلت بارزة في الادب العربي الى اوائل الحرب العالمية . وما يزي ذلك ما نظمته الشعراء سنة ١٩١٣ في حادثة الطيارين التركيين فتحي وصادق وهما اول طيارين شرقيين ظهرا في سماء الشرق العربي . فلما وصلا سوريا ولبنان قابلهما الادب العربي بهبة وطنية هزّت اعصاب الناس وأثارت نخوتهم الشرقية او قل العثمانية . كقول الشيخ مصطفى الغلاييني من قصيدة حماسية:-<sup>(٢)</sup>

خيمتا فوق الرؤوس فأشرقتا      منا الوجوه وأزهرت انوارها  
وفتحت يا فتحي القلوب بزمرة      احيا موات رجائنا تذكّارها  
ونزعت منا اليأس وهو بليةٌ      شنعاء عمت قومنا اضرارها

ومثل هذه الحماسة الوطنية تتجلى في اقوال اكثر الشعراء لذلك العهد . ثم طار الطياران يقصدان مصر، ولكن القدر المحتوم لم يمهلهما فسقطا قرب طبريا وكان لمصرعهما رنة اسف عمت جميع الاقطار العربية . وقد جعلها الشعر العربي مثال الوطنية الشرقية المتحفزة لمباراة الغرب . وفي ذلك يقول الياس فياض -<sup>(٣)</sup>

فتحي أطل من العلاء مكذباً      من قال إنا امة لن تقدما  
من قال ان الشرق شعبٌ خاملٌ      لا يستطيع مع الشعوب تقدما  
اليوم قد جدتما لشبابه      عهداً ينسبي عهده المتصرّما

(١) راجع ايضاً ديوان عبدالمطاب ٢٨٥ والباروني ٥١ والرافعي ٢ - ٢٩٦ والكاظمي ٩٩١

والطران في الحلال ٢٠ - ١٨٢ وعبدالحليم المصري في آداب مصر لسعد ١٨٨

(٢) المورد الصافي ٢٤٣ - (٣) المورد الصافي ٣٠١ - ٣٠١

أهرقنا للعلم افضل مهجة كانت تراق على المظالم قبلما  
هذا هو الدرس المفيد وهذه عظة الزمان فهل لنا ان نعلما  
من ليس يعرف ان يموت مكرماً هيهات يعرف ان يعيش مكرماً

ويتجلى شعور المصريين يومئذ في قول شاعرهم حافظ من قصيدة<sup>(١)</sup>

أخت الكواكب ما رماكِ وأنتِ رامية النور  
ماذا دهاكِ وفوق ظهركِ مريض الاسد المصور  
ومنها مخاطباً فتحي: حاولت ان ترِدِ الجُرّة والورودُ من العسير  
فوردتَ يا فتحي الحمامَ وأنتِ منقطعُ النظر  
وهويت من كبد السماء وهكذا مهوى البدر  
ان كان اعياك الصعود بذلك الجسد الطهور  
فاسبح بروحك وحدها واصعد الى الملك الكبير

ومثلها قصيدة لعبد المطلب مطلعها: « وقفت لك الدنيا فسيري<sup>(٢)</sup> » وقصيدة  
شوقي: « انظر الى الافار كيف تزول »

وعلى هذا النمط نظم كثير من الشعر الوطني في بيروت ودمشق وبغداد والقاهرة  
وسواها من حواضر العالم العربي

واذا قيل كيف ذلك والعرب يومئذ كانوا قد بدأوا يستنكرون سياسة الاتحاديين  
الاتراك ويتشوّفون الى حياة قومية وكيان مستقل بدليل ما نراه من جمعياتهم  
السياسية في مصر وغير مصر قلنا ان تلك الجمعيات لم تكن تملك من وسائل الدعاية ما  
يشيع في جميع الانحاء مبادئها او ما يجمع القلوب على نصرتها . فظلّ السواد الاعظم  
من ابناء العربية متعلقين بآمالهم الدستورية لا يرون لهم من رابطة غير الخلافة  
العثمانية . ثم ان الحركة العربية الاستقلالية لم تكن قد نضجت نضجاً كافياً لتأصيل  
فكرة الانفصال عن الجامعة العثمانية . وبخيل البنا من دراسة عواطف الناس في ذلك  
الحين ان الزعماء الذين كانوا يعملون في سبيل الفكرة العربية لم يكونوا على بينة من  
هذا الامر . ولو راجعت الرسائل التي كان يتبادلها سرّاً امثال عبد الحميد الزهراوي ،  
ومختار بيهم ، ومحمد الحمصاني ، وسليم الجزائري ، ورشيد رضا ، واخوانهم من اعضاء

المؤتمر العربي او الجمعية الاصلاحية ، لوجدت ما يزيكي قولنا ان الاصلاح الذي كانوا ينشدونه لم يكن يراد به اولا القضاء على الرابطة العثمانية والاستهداف لمطامع الاستعمار<sup>(١)</sup>. ولو عرفت تركيا يومئذ كيف تستغل شعور الناس لالتفت من الكتلتين التركية والعربية جامعة عزيزة الجانب صادقة الوطنية لكن السياسة العنصرية الحادة حالت دون ذلك ، فكانت من الاسباب المعجلة لنجاح الدعايات الاوربية في الشرق العربي ، ثم لاشتعال الثورة العربية في اثناء الحرب الكبرى ( سنة ١٩١٦ )

وسواءً أصبح استنادنا الى تلك الرسائل أم لم يصح فالواقع المشاهد ان الشعر العربي كان في أوائل العهد الدستوري أسرع الى الصفع عن مساوىء العهد الماضي والى تعزيز الرابطة العثمانية . ثم حدث الاحتكاك بين العنصرين التركي والعربي وأخذ البعض يلهجون بحقوق العرب في السلطنة وقد ظهر ذلك في الشعر العربي ( كما سنرى ) . على ان الشعر لم يقطع صلته بفته بأماله الدستورية التي كان يشيد بذكرها. وقد ظل طيلة العهد الدستوري أميل الى التوفيق بين الأمانى القومية والجامعة العثمانية ولو تأملنا لرأينا انه لم يصبح عدواً لهذه الجامعة الا بعد الثورة العربية والحرب العالمية

فليس من الغريب ان نراه من حين الى آخر يتأجج بالشعور العثماني إزاء بعض الحوادث الوطنية كالتي مرت ذكرها من حوادث التعدي على الدولة في البلقان وطرابلس او من حادثة الطيران التي اضرمت القلوب في مختلف الاقطار حتى قال فيها شاهد عدل هو الدكتور هورد بلس رئيس جامعة بيروت الاميركية سابقاً وكان يوم الحادثة في مصر- « ان ما آتسته من حماسة اخواننا المصريين وشدة استعدادهم لاستقبال الطيران واقامة المآدب والاحتفالات اللائقة بهما جعلني اتصور شيئاً مما سمعته عن عظمة الاستقبال الذي جرى لهما في بيروت وعن الابتهاج الذي شمل الاهلين لمشاهدتهم للطيارين العثمانيين لأول مرة »<sup>(٢)</sup>



(١) راجع هذه الرسائل في كتاب ثورة العرب ( لاحد أعضاء الجمعيات العربية ) مطبعة المقطم

(٢) مجلة الكلية ٥ - ١٣٨

١٩١٦ ص ١٢٧ - ١٣٨

# الدستور

## والنعرات المذهبية

إن من يعرف الشرق العربي قبيل الدستور يعرف ما بلغه من الاختلال الاجتماعي والاقتصادي . فسياسة الحكومة الحرقاء والدعايات الاجنبية المختلفة كانت من افعل الوسائل لتوسيع شقة الخلاف بين ابناء البلاد حتى اصبحت البغضاء الطائفية مستحكمة الحلقات وكثيراً ما كان ذلك يفضي الى « حوادث » دامية وشرّ مستطير<sup>(١)</sup> . ومهما نحاول تخفيف الامر فلا سبيل الى انكار ما كان في العهد الحميدي من حزازات بين الاكثرية والاقلية ، بل بين الفروع التي تنتمي الى كلٍ منهما . وفي ذلك يقول سليمان البستاني وهو عثماني صميم ومن الذين خدموا الدولة نائباً ووزيراً « لم يكن من مصلحة ظلمة الاستبداد في الحكومة الغابرة ان يؤلفوا بين القلوب اذ كانوا يعتقدون لجهلهم ان وفاق الامة يدك معاقل صولتهم »<sup>(٢)</sup> والى هذه الحال يشير بطل الانقلاب نيازي بقوله من خطبة القاها في جمعية الاتحاد والترقي وذلك قبيل اعلان الدستور<sup>(٣)</sup> « تعلمون ان سفالة الحكومة وجبنها وهونها صيّرتنا سخرية بين الناس والذي يجب ان نقوم به لقاء الحكومة ولقاء مؤامرة اوربا على تقسيمنا هو ان نثبت فعلاً في ثورتنا هذه اننا نحب المسيحيين كاخواننا ونساوي بينهم وبيننا . فليست ثورتنا ضد الاشخاص والعناصر بل هي نهضة ضد اصول الادارة التي اوقعت العداوة بيننا وبين اخواننا في الوطن » . فنيازي هنا يصرح بهذه الحقيقة المؤلمة ويعزو اللوم في ذلك الى سوء الادارة من جهة والى سياسة المستعمرين من جهة اخرى . ولقد يصح ان نستثني مصر لما كانت تتمتع به من حرية اجتماعية بعد الاحتلال . على ان سائر البلدان العربية ولاسيما سوريا كانت

(١) راجع وصف هذه البغضاء الطائفية في كتاب حوادث الشام ولبنان لمخايل الدمشقي ( المطبعة الكاثوليكية ١٩١٢ ) ص ١١ و ٢٠ و ٢٨ و ٢٩ وايضاً كتاب حشر اللشام من نكبات

الشام مصر ١٨٩٥ ص ٣٦ (٢) كتابه عبدة وذكري (١٩٠٨) ص ١٠١

(٣) من تأملات نيازي راجع المورد الصافي ١ - ٦٢

— كما هو معروف — تتخبط في دياجير التعصب وتقاسي منه الالهوال . فلا عجب اذا رأينا السوريين واللبنانيين يهاجرون الى وادي النيل او يضربون في آفاق الارض سعياً وراء الرزق والحرية . وقد اصاب حافظ ابراهيم اذ قال في وصف هؤلاء المهاجرين<sup>(١)</sup>

لم يجمعهم عَلمٌ فيها ولا عددٌ      سوى مضاء تحامى ورده الثوبُ  
لهم بكلّ خضمّ مسرب نهج      وفي ذرى كل طودٍ مسلك عجبُ  
ما عابهم انهم في الارض قد نثروا      فالشهب منشورةٌ مذ كانت الشهبُ

ولا ينكر ان كثيرين من العقلاء كانوا يرغبون في الحسنى وفي القضاء على هذا الاختلال الاجتماعي المؤذي ، لكن السياسة على ما يظهر لم تمكنهم من ذلك

فلما أعلن الدستور ونودي في الناس بالحرية والمساواة والاخاء زال الضغط فجأة عن الصدور حتى رأينا من غريب المشاهد ما كان له اثر عميق في ادب ذلك العهد . زعماء الطوائف يتعانقون في الساحات العمومية ويتعاهدون على المودة الاخوية . قال الدكتور هورد بلس من خطبة له القاها في الجمعية الجغرافية الوطنية باميركا ( في ١٨ ديسمبر ١٩٠٨ ) ذاكرآ تلك الحال في بيروت —<sup>(٢)</sup> « فأطلقت حينئذ الحرية في المدينة ولم يعد الناس يتماثلون ضبط نفوسهم عن اظهار بهجتهم — والناس الذين قضوا السنين الغابرة والعداوة بينهم مستحكمة صاروا الآن اصدقاء اعزاء في الحفلات والجمععات وصار رؤساء الدين من المسيحيين والمسلمين يتضامون ويتعانقون . قطعت الاغصان من الاشجار وأقي بالبسط من المنازل واكتظت الشوارع بالناس فكانوا يضيفون اخوانهم الذين فقدوا صداقتهم زماناً طويلاً . وكانت امارات المودة والالفة ظاهرة في كل مكان حتى بين الرعاع وذوي الجرائم »

ولنترك لاديب بيروت معروف وصف مشهد من هذه المشاهد وهو انموذج لما حدث في اهم الحواضر العربية قال —<sup>(٣)</sup> « من ابهج ما رايت من هذا الوفاق ان نقرأ من شبان حيّ السراي ( حي اسلامي ) ركبوا العربات فسارت الى محلة الجميزة (حي مسيحي) فجدّوا عهود الاخاء مع اخوانهم المسيحيين بعد ان ابلاها الجهل ورجال سوء . هناك تأخى الفريقان وتحابّ القبيلان وعلّموا ان العثمانيين جسم واحد تديره روح واحدة »

(١) من قصيدته الشهيرة (امر ام لربوع الشام تنسب) (٢) راجعها في المقتطف ٣٦ ٣٥٠

(٣) مصطفى النلايبي في لسان الحال ، آب ١٩٠٨

ويزكي هذه الشهادة ما ذكرته مجلة الهلال عن بيروت اذ قالت (١) - « اظهر اهل بيروت بعد اعلان الدستور ما ادهش العثمانيين من الاتحاد والحرية الشخصية وصحة المبدأ . فقد كان اهلها اول من تصافح فيهم الشيخ والقسيس . واطهروا في اثناء انتخاب النواب لمجلس الامة استقلالاً في الفكر واتحاداً في الكلمة . ولما وثب بقية حزب التقهقر بجمعية الاتحاد والترقي بالاستانة كانوا في مقدمة الناقمين على الواثيين . وقاموا يؤيدون الدستور بخطبهم ورسائلهم . وعثروا على بعض الجواسيس يسعون في التفريق بينهم فقبضوا عليهم . وجدّدوا الوفاق بين طوائفهم . وقالوا اذا تباغضت الطوائف في كل المملكة فنحن متفقون في نصرة الدستور الى آخر نسمة من الحياة » وللشعراء في هذا الوفاق وفي الحزب على نبذ التعصب الدميم قصائد كثيرة نجتزئ منها ببعض مقطعات على سبيل التمثيل . فمن ذلك هذه الايات (٢)

قد صرتم امة في الارض واحدة	من آل عثمان لا عرباً ولا عجماً
فلا تفرقكم اجيالكم فرقا	ولا تقسمكم اديانكم قسماً
كم قيدوكم بها اسرى وكم سفكوا	دماءكم او احلوا فيكم النقا
واليوم جرّد سيف الحق صاحبه	وهاجم الظلم حتى فرّ منهزماً
تعانق الشيخ والقسيس واصطحبا	من بعدما افترقا ضدين واختصما
تآخيا في حمى الدستور واتحدا	ورفرت راية التوحيد فوقهما

وهذه النغمة تسبعا في بيروت كما تسبعا في دمشق وبغداد وسواهما . فمن دمشق مثلاً قول احد ادبائها (٣) من قصيدة : -

ايها الشرقي قد بلّغت ما	كنت ترجوه فهل ثمّ خلل
فانبذ البغضاء والحق ودع	كل ما فيه فساد وزغل
كل من في الشرق اخوان فلا	فرق بين الخلق من كل النحل

ومن العراق قول الرصافي (٤)

اكرم بعصر حباناً بالمساواة وخصنا بالتهاني والمسرّات

(١) الهلال مج ١٧ - ٢٩٦ (٢) الهلال ١٧ - ١٧٢ (٣) محمد شاكر ياسين :

شيوخ ٢ - ١٦٥ (٤) من قصيدة : راجع شيخو ٢ - ١٦٦ (ولم نجد لها في ديوان الشاعر)



عصرٌ بهٍ قد تأخينا فليس ترى بعد الأخاء طريقاً للعداوات

ومن مصر نقولا رزق الله<sup>(١)</sup> وغيره من الادباء

والذي يظهر من مراجعة النفثات الدستورية ان هذا الشعور المتألم من مساوي التعصب الديني كان أبرز في الشعر السوري اللبناني منه في سائر الاقطار العربية. ولعل من أسباب ذلك أن مسألة « الاكثوية والأقلية » لم تبلغ في مكان ما بلغت في الاقطار السورية . فمصر كما ذكرنا كانت تحت نفوذ الاحتلال ، والعراق قطر اسلامي لا قوة للأقلية فيه وبالتالي لا تنافس طائفي موجب للبغضاء . وان كانت شيء من ذلك في ذلك الحين فبين المسلمين أنفسهم من سنية وشيعة . ولم يظهر في الشعر العراقي من اشارة الى احتكاك المسلمين بالمسيحيين الا في عهد الانتداب ، كما ترى في قصيدة وجهها الرصافي الى المسيحيين ومطلعها<sup>(٢)</sup> -

أما آن ان تُنسى من القوم اضعان فيبني على اس المساواة بنيان  
علام التعادي لاختلاف ديانة وإن التعادي في الديانة عدوان  
إذا جمعتنا وحدة وطنية فماذا علينا ان تعدد اديان

وهي طويلة وتشف عن خوف العراقيين من السياسة العاملة على هدم الكيان القومي بالتفريق بين طوائفه . وسنرجع الى ذلك بعد

اما سوريا وبنوع خاص منطقتها الساحلية التي تشرف عليها جبال لبنان فقد كان التنافس الطائفي فيها على اشده ، وكانت دائماً اكثر تعرضاً للدعايات الاجنبية واكثر اختلاطاً بالحضارة الغربية . فنشأ عن ذلك ضغائن ووقائع دموية كان لها اثر عميق في النفوس . فلا بدع ان نرى الشعر السوري واللبناني في ذلك العهد اشده تهجماً على التعصب الديني واكثر ترحيباً ورجاءً بالعهد الجديد . وقد حملت النشوة الدستورية بعضهم على الخروج عن جادة الاعتدال . فلم يقفوا عند حد التهليل بالاخاء والدعوة الى نبذ الاحقاد ، بل تجاوزوه الى درجة التطرف فصاروا يعززون الى الدين ورجاله كل أسباب التعصب والشقاق ، ويرجعون اليهم كل ما اصاب الشرق من البلايا الاجتماعية ، كقول احد شعراء المهجر<sup>(٣)</sup>

(١) الملتطف ٥٠ - ٣٨٩ (٢) ديوانه (١٩٣١) ١٥٠

(٣) ابو الفضل الوليد في « أغاريد وهو اصف » ٥٠

وإني لبوهيني تقسم امتي بأديانها والشر بين المذاهب  
متى ينتهي كهاننا وشيوخنا فنخلص من حياتهم والعقارب  
شقيننا لنعامهم وراحتهم فهم يسوقوننا كالعيس نحو المعاطب  
فما الدين إلا نسخة بعد نسخة يزخر فيها للناس أهواء كاذب

وفي الشعر الدستوري كثير من مثل هذا التطرف ( ومعظمه في الاوساط المسيحية ) . فلا عجب اذا راينا رجال الدين ينكرون ذلك ويقاومونه كما فعل الاب لويس شيخو في كلامه على الحماسة الدستورية اذ قال (١) . « واسوأ من هؤلاء ( اي المبالغين والمتهوسين ) اولئك الذين توسلوا بالدستور فاستباحوا في شعرهم ذمار الدين وانتهكوا حماه ونجسوا حق بمثليه . فتري هذا ينسب الى الدين كل الشرور واسباب النفور، والدين كما لا يخفى يأمر بالاخاء والتحاب: وغيره يدعي ان الدين لا دخل له في العمران وانه من المسائل العرضية ( كقوله )

خل قسسي وشيخكم في جدال واحك لي في المسائل الجوهرية

واذا ذكر الذين حكم عليهم بالظلم وقت الاستبداد تعجب انهم لم يكرموا كآلهة مثل السيد المسيح

مات عيسى فألته الوف والوف ماتوا وراحوا ضحيته

« ويجعل آخر كل الاديان متساوية وكلها صحيحة » ... الى ان يقول .. « فننشدم الله ايها الشعراء صونوا قرائحكم من كل امتهان ولا تبتذلوا موهبة جادها عليكم المنان »

\*\*\*

ولا بد لنا من القول ان هذه الحرب التي اثارها الشعر الدستوري على التعصب الديني قد احدثت شيئاً من التقارب المنشود ، لكنه لم يكن ثابت الاركان . فظلت الطائفية اساس الاجتماع والسياسة في البلدان العربية . وظلت مسألة الاكثرية والاقلية عقدة من العقد المستعصية ، حتى في مصر حيث كانت السلطة الاحتلالية تقوم بدور الحماية لحقوق الاقليات . ففي سنة ١٩١١ عقد الاقباط في امسيوط مؤتمراً عاماً للمطالبة بامور تتعلق بطائفتهم (٢) وازاء ذلك عقد المسلمون مؤتمراً في عين شمس (٣) . ومن بواعث

(١) آدب القرن التاسع عشر ٢ - ١٦٨ (٢) الهلال ١٩ - ٥٠٦ وكان كاتب هذه

المطور ممن اتيج له حضور هذا المؤتمر (٣) الهلال ١٩ - ٥٠٧

الرضى ان جوّ المؤتمرين كان مشبعاً بروح الوثام . الا ان المدقق في البواعث على انعقادها لا يسعه الا ان يرى شبح الطائفية فيها ماثلاً للعيان . وكذلك كان هذا الشبح في سائر الاقطار العربية

فالدستور ارهف الشعور الاخوي بين الطوائف حيناً، وفتح للاحرار باب التهجيم على التعصب، حتى ظنّ كثيرون ان اسباب الجفاء الديني قد زالت من الشرق العربي، وان ابناء الشرق، على اختلاف نحلهم، سينعمون في ظل العثمانية الجديدة بعهد جديد تغلب فيه روح الوطنية الحرة على النعرات الدينية الهدامة . والحق يقال ان الشعر العربي لم يقصر في الدعوة لهذا العهد الجديد، ولم يأل جهداً في اثارة النفوس للتخلص من قيود الاوهام وبما ورثته من سخائف القرون المعروفة بقرون الظلام . لكن تلك النعرات على ما يظهر كانت ارسخ من ان تستأصلها الثورات الكلامية، فعادت الى الظهور ولا تزال الى الآن تعمل عملها في حياة الشرق الاجتماعية والسياسية وسنرى انه قد ظهر بعد هبة الدستور هبات اخرى هي ايضاً ارهفت الشعور القومي واهابت بالشرقيين الى الاخاء والوثام . على ان عوامل التفريق لا تزال تعمل في الشرق عملها المعيب، ولا يزال الشرق برغم الجهود المبذولة بعيداً عن هدفه الوطني المنشود



## بعد النشوة الدستورية

حاولنا فيما سبق ان نؤرخ العواطف العربية بوصفنا الاثر الذي أحدثه الدستور لأول وهلة في نفوس العثمانيين ولاسيما ابناء الشرق العربي . وقد رأينا كيف برز الشعر في مفتح العهد الدستوري بحلل قشبية من الحماسة سُداها الامل ولحمتها الاستبشار . على انه لم يظل كذلك طويلاً . فلم تكدمر سنة على اعلان الدستور حتى رأينا كثيراً من النفثات الشعرية مصطبغة بألوان قائمة من الاشفاق والحذر . ولو تحررنا الاسباب لوجدناها متباينة الاصول . فمنها نفسي ومنشأه ذلك التراخي الذي يعقب عادة شدة الانفعال او الثوران العصبي . خذ الغضب مثلاً فهو يثير النفس ويشعرها مؤقتاً بشيء من القوة ، لكنه لا يلبث ان يزول ويعقبه « رد فعل » مقترن بالضعف والهبوط . ومثله الاغراق في الجور او الحزن والامل وما الى ذلك من الظواهر النفسية . وذلك ما حدث في الهبة الدستورية . فقد كان الشعر على اثرها متوتراً شديد الحماسة مثلاً يترنح بخمرة الاغبتاط فهزج ورقص وصخب ما شاء . ثم عراه في بعض الاوساط هبوط تدريجي القى عليه مسحة من التشاؤم

ومن اسباب هذا التشاؤم خيبة الامل في النظام الدستوري . كان الناس يرجون من الدستور المستحيل . يرجون منه ان يقلب الاحوال ويغير الطباع وان يهيء لهم فجأة اسباب التقدم والسعادة . على ان النظام وحده غير كاف ، ولا بد من اتحاد الزمن والعلم والاخلاق للوصول الى الغاية المنشودة . وكما ان الشجرة لا تنمو الا اذا تهيأت لها اسباب النمو ولا تثمر الا متى حان الاوان ، كذلك كل دستور . وما على القائمين به الا تعهده بحنكة واخلاص ، وتدريب الناس تدريباً منظماً على السير بموجبه والعمل بمقتضياته . ولا شك في ان العثمانيين عموماً لم يكونوا على استعداد كاف للحياة الدستورية . وقد ظهر في تطبيقه نقائص لم يكونوا يتوقعونها بما اثار في النفوس احساسات معكوسة ظهرت في الادب بمظهر الحيبة والفشل

واذا عرفنا ذلك عرفنا الدافع الى قول جرجي زيدان بعد زيارته لسوريا ولبنان عام ١٩١٠ مشيراً الى التشاؤم المستحوز على بعض النفوس . ومحدراً من التادي في

ذلك<sup>(١)</sup> » وطائفة تعجّلت استئثار الدستور فهي تريد ان تصير المملكة العثمانية التي قضت قرنين في حال الاحتضار وقد نضبت مالياتها وأجدبت أرضها واطلمت مدنها وتخرّبت طرقها وشوارعها وفسد كل شيء فيها حتى اخلاق اهلها واختل نظام اجتماعها وفرّق التعصب بين طوائفها ومذاهبها—تريد هذه الفئة من المنتقدين ان تصير هذه المملكة في سنتين مثل ارقى ممالك اوربا وهذا مستحيل »

فقد ادرك زيدان يومئذ ما كان يشعر به الناس عموماً من سوء الظن بالحكومة الدستورية وخيبة الامل بما اعلنته من الاصلاح فلم يجارهم في النقد بل راي التريث والصبر اولى واخبر للوصول الى الغرض المقصود . وقد شاركه في ذلك كثير من المفكرين . الا ان بعض الشعراء لم يستطع الصبر على هذه الحال فاندفعوا في سبيل التهم والانتقاد ، كقول الرصافي من قصيدته شكوى الى الدستور<sup>(٢)</sup>

فهل ايها الدستور تسمع شاكياً      بك اليوم يرجو ان يرى نهضة الشرق  
لقد جئت من افق الصوارم طالعاً      علينا طلوع الشمس من منتهى الافق  
فصادفت منا امة قد تعشقت      لقاءك حتى جاوزت مبلغ العشق  
وظلنا نرجي منك للخرق راقعاً      ولكن تراخي الامر متسع الحرق

وقول الشاعر القروي في البرازيل<sup>(٣)</sup>

جاءت فكبرنا وشقّ هتافنا      قلب العنات تيمناً بالجائي  
ودعا الفقير لها وسماها أخو البؤس الشديد بأعذب الاسماء  
حتى اذا فتر التحمس وانجلي      صبح الحقيقة عن دجى الضوضاء  
نادى فلم يجد النداء ودعا فما      لباه غير تجاوب الاصدا

ولولي الدين يكن قصيدة موضوعها ( الاسترقاق في ايام الحرية ) صدر بها احد فصول كتابه الصحائف السود سنة ١٩١٠ . وفيها يقول عن الحرية

تشتاق في عزها ذويها      وحصنها دونهم حصين  
حمام هذي القيود تبقى      يارب قد كلت المتون

وقد عبر عن عواطف كثير من الناس حين قال على طريقته الشعرية النثرية<sup>(٤)</sup>

(١) راجع الهلال ١٩ - ٣٩ (٢) ديوانه (١٩٣١) ٣٧٥ (٣) الرشديات (٤) سان باولو (١٩١٦) ٧١ راجع كتاب التجارب (١٩١٣) ٣٢ و ٣٥

« قلت حين نبدوا لنا جيفة الدستور : نؤازر هؤلاء القوم القائمين فينا بالامر. ربما اصابوا من حيث لا يشعرون - وكم رمية من غير رام . وقلت اطمئني ايتها القلوب واسكني يا ثائرات النفوس . ووقف اخواني العثمانيون يتفرجون فما راعنا الا مذابح وفن ، وغارات تتلوها غارات ، وصخب وضجيج ، بينا نواب الامة يتجاذبون اطراف الفوائد كل يريد ان يسمن كبشه » ثم يقول « اخواننا الذين يظلمهم الدستور العثماني لا قبل لهم بمعارضة الحكام وهم معذورون . ثم سفار ارهفت ، وسيوف سلت تقتطف الرقاب كما تقتطف الثمار »

ويبلغ به التشاؤم مبلغه في هذين البيتين<sup>(١)</sup> مخاطباً رجال الدولة

أفلا يزال السوط حاكمكم وأبو السياط بيلدز ذهاباً<sup>(٢)</sup>  
ونقول أحرار فتمدحكم لا حرّاً فيكم . كلنا كذبا

على ان أهم ما يذكر له في هذا الباب قصيدة موضوعها « بين أنقاض الوطن » قالها يصف حال الدولة وما وصلت اليه على يد الدستوريين وهي تنيف على الستين بيتاً<sup>(٣)</sup>

حلمنا بشيء وانتبهنا بضده وما يجتني من كاذب الحلم حالم؟  
أقيم بناءً بالعراء على شفا ولم تقو أساس له ودعائهم  
فما ظنّ منه قائماً فهو مائل ومن ظنّ منهم بانياً فهو هادم  
وأربعة<sup>(٤)</sup> مرت ولم تحل لأمري نهادت على الاقطار وهي سمائم  
تعوض بأساً من غدا وهو آمل وشام يقيناً من سري وهو واهم

ومثلها تشاؤماً وسخطاً قصيدة موضوعها « التعصب يخرج الحرية من ديارها » . قالها حين نفى الحكام جميل الزهاوي من بغداد . ومطلعها « اسيرٌ بدار الظلم اعياء أسرهم » وفيها يندد بالجزور والتعصب ويلوم اولي الامر على انتهاك حرمة الدستور . وهي تبلغ ثلاثين بيتاً ويتجلى لك روحها في قوله<sup>(٥)</sup>

أحين هوى عبد الحميد بعرشه وغبّره بالذم في الناس غابره

(١) راجع كتاب التجاريب (١٩١٣) ٤٢ (٢) اشارة الى انقضاء العهد الحميدي

(٣) راجعها في التجاريب ١٠٨ (٤) أربعة اعوام مرت على اعلان الدستور

(٥) راجعها في التجاريب ١٩

يقوم اناس يستعيدون عهده وفينا نيازي قائم وعساكره  
ألا نرتجي العدل والعدل دوننا موارد محمية ومصادره  
تجسلى زماناً ثم لم تبسم لنا اوائله حتى استسرت اواخره

فولي الدين ينسب الى الاتحاديين الاستبداد بالامر والضغط على الحريات مما يجعل الدستور نظاماً أجوف لاخير منه . وقد يقال ان هذا الشاعر عصبي المزاج يميل الى سوء الظن فيبالغ في نقده سيئات الدستوريين . على انه لم ينفرد بذلك . والذي يراجع ادب ذلك العهد يجده مشبعاً باليأس والمرارة ، او على الاقل مصطبغاً بصبغة عدم الرضا كما ترى في مقال لرفيق العظم موضوعه الاحزاب في الامة<sup>(١)</sup> ينتقد فيه الاتحاديين واستثنائهم بالسلطة النيابية فيقول - « ان الاحزاب في البلاد الدستورية كالقواعد التي يشاد عليها بناء الدستور . ولا يمكن لقاعدة واحدة ان ترفع ذلك البناء . فهل لاختواننا الاتحاديين ان ننعيموا في هذا الامر قليلاً لنعلموا ان القوة لا تبلغ بحزب واحد يحمل ذلك البناء الثقيل بازاء امة جامدة مثل هذا الجمود الخفيف . فهي في حاجة الى من يسوقها الى ميدان السياسة ويرشدها الى فضيلة الحكم الدولي ألا وهي الاحزاب فانها هي التي تتولى تمرين الشعب على ذلك الحكم وتشويقه اليه لتكون يداً واحدة في المحافظة على الحرية والدستور » . وهذا الكلام كلام عارف بأحوال البلاد مطلع على دخائل الامور . نعم ليس فيه لزع ولي الدين ولكن فيه ما يشير الى الاسباب التي اثارت كوامن نفسه الحساسة . وقريب من هذا المعنى قصيدة لرضا الشيباني يشير فيها الى خيبة الآمال التي عُقدت على الدستور<sup>(٢)</sup>

ومن المنتقدين من رأى الخلل في الشعب نفسه لا في القائمين باصلاحه او المتولين لشؤونه فمن الاجعاف عندهم ان تلقى كل التبعة او معظمها على عاتق الذين احدثوا الانقلاب وتولوا الاحكام وان يعزى اليهم وحدهم هذا الفشل في تطبيق النظام . وعلى ذلك يقول الاستاذ الدكتور فيليب حتي . من خطبة له موضوعها من المألوم<sup>(٣)</sup> - « ما لنا قائمة قيامتنا ابدآ على حكومتنا ورجال الحكم فينا ولا لوم على هؤلاء ولا تثريب . انما اللوم كل اللوم علينا نحن كامة اذ ان الحكم ليسوا الا بعض افرادها يرتقون بارتقاها وينحطون بانحطاطها . يقولون الداء اختلاف العناصر والدواء ائتلافها

(٢) ديوانه ١٩٢٥ ص ٦

(١) المورد الصافي ٢ - ٢٢٢

(٣) راجعها في المورد الصافي ٣ - ٢٠٥

وامتزاجها - يقولون الداء « المركزية » والدواء توسيع المأذونية والسلطة الادارية - يقولون ويقولون والواقع غير ما يقولون . الداء الحقيقي هو جهلنا حقائق الامور وانحطاطنا علمياً وأدبياً كأفراد وبالتالي كمجموع ، والدواء التهذيب الحقيقي . وما الضعف القومي سوى عبارة عن مجموع الضعف الافراي . اننا في حاجة الى تهذيب عام يشمل الفتيان والفتيات - حاجتنا الى مبادئ قوية الى آداب حصينة - الى رجال . وتصف لنا الشعور نفسه قصيدة للمؤلف موضوعها « العامة في الشرق » وقد نظمت على اثر بعض الحوادث المؤسفة عام ١٩٠٩ ومنها<sup>(١)</sup> -

سلانك <sup>(٢)</sup> حسي الجند عنا وسلمي	عليهم سلام المستهام المتيم
وهبت لنا الدستور منك تكرماً	وما نحن اهل للعطا والتكرم
ضجيجٌ وأوهام هو الشرق كله	فهل من فعول في الشدائد مقدم
يقولون ان الشعب في الشرق حاكم	وربك ما السلطان منه بأظلم
أنيروا أنيروا الجاهلين فاننا	بني الشرق نسري في الظلام الخيم
انيروا انيروا الجاهلين وبشروا	بدستوركم في عالم الشرق بنعم
فما الشعب بالرأي العمومي ناهض	الى ذروات المجد من غير سُلم

وبما زاد الحالة تفاقمًا والنفوس تشاؤماً ما نشأ بعد خمود النائرة الدستورية من مشادات عنصرية بين العرب والأتراك . فبعد تلك الهبة المتفائلة التي نراها في الادب ما بين سنتي ١٩٠٨ - ١٩٠٩ ، والتي كانت تميل الى تعزيز الجامعة العثمانية والتباهي بها أمام الاجانب أخذ التشاؤم يتسرّب الى بعض الاوساط العربية . فتنبه العرب الى المطالبة بحقوقهم وصاروا يلهبون بقوميتهم ومقامهم في السلطنة وتلك هي الشرارة الاولى من النار التي تأججت بعدئذ في الثورة الحجازية ثم في الحركة القومية العربية بعد الحرب الكبرى وسنفرد بعد لهذه الحركة فصلاً خاصة . فلنتقدم الآن الى كلمة في الحرب العالمية الاولى ( ١٩١٤ - ١٩١٨ ) واثرها الادبي

(١) راجعها في المورد الصافي مجلد ١ جزء ٣

(٢) سلانك كانت يومئذ المركز الرئيسي للانقلاب الدستوري



# الحرب العالمية الاولى

## وارها في الادب

والتأمل في الشعر العربي السياسي اثناء هذه الحرب يراه على نوعين - حكومي وعمومي . فالاول مقرون بالسلطة القائمة واعمالها الادارية والسياسية ، وهو أدب كان يوجه الى الاقلام احد العوامل التالية : -

(١) رهبة تدفع الى المبالاة والتقية

(٢) طمعٌ يبعث على التزلف والمداهنة

(٣) تهوُّس ديني يثير في النفوس التعصّب والحماسة

ولو التفتنا الى سوريا ولبنان وفلسطين والعراق لرأينا ذلك ظاهراً للعيان . فقد دخلت تركيا الحرب الى جانب المانيا فخباً بغتةً ذلك التوتر العنصري وكُتبت الافواه والاقلام الا عن حمد الدولة وتحميد سياستها . على ان تركيا لم تكن غافلةً عن النزعات اللاتركية الناشئة في الاقطار العربية وعن تنشيط الحلفاء لها . فكان اول ما عملته بعد دخولها الحرب انها ألغت الامتيازات الاجنبية فأصبحت السيطرة المطلقة على مقدّرات البلاد ، ثم قسمت الجبهة العربية الى منطقتين حريبتين الاولى بمنطقة الجيش الرابع ويدخل فيها سوريا ولبنان وفلسطين والحجاز - والثانية منطقة الجيش السادس وهي بلاد ما بين النهرين وأقليم شطّ العرب . وقد رأت ان تنظّم الاولى اولاً وان ترعاها رعاية خاصة فعهدت بها الى احمد جمال باشا الذي عرف الجميع ما جرى على يديه من بطش وارهاب وما قاساه العرب في عهده من شدة وضيق

فمن الطبيعي في مثل تلك الاحوال ان لا يكون في البلاد العربية العثمانية أدب سياسي حرّ وان تكبت العواطف الحقيقية في اعماق الصدور . واذا أضفت الى ذلك ان الخلافة الاسلامية كان لا يزال لها تأثير عميق في نفوس المتدينين ، وان المآرب الذاتية كانت تعشّش في صدور الكثيرين فلا تستغرب ان ترى الادب العربي يومئذٍ

يلبس اثواب التعصب للسيف التركي او الخلافة التركية . خذ بيروت مثلاً فقد كانت اهم مركز ادبي في الشرق العربي ( خارج مصر ) ومستنبتاً خصباً للدعايات الاصلاحية . كان فيها عشرات الصحف والمطابع والمعاهد العلمية . والذي يُلاحظ ان كثيراً من الصحف العربية كانت قبل دخول تركيا الحرب تجاهر بميلها الى الحلفاء ، فلما دخلت اضطرت اماً الى التوقف وإما الى بمالة السلطة . فلم يبقَ في تلك المدينة اكثر من ست جرائد . وبالطبع لم تكن اخبارها الا بلاغات تركية المانية ، ولم تكن مقالاتها الا اناشيد مدح لاعمال الدولة العلية . وانه لمن المدهش بل المضحك ان تقابل بين ما كانت تكتبه طائفة من تلك الجرائد خلال الحرب وما كانت تكتبه بعدها ، ولا سيما فيما له علاقة بنهضة العرب ومطالبهم القومية

ومن افضل الامثلة على الادب السياسي الحكومي في تلك الاثناء مجموعة من الخطب والمقالات والقصائد صدرت في بيروت في كتاب خاص بعنوان «البعثة العلمية الى دار الخلافة الاسلامية»<sup>(١)</sup> ففي ايلول (سبتمبر) سنة ١٩١٥ نظمت قيادة الجيش الرابع وفداً من اكثر من ٣٠ رجلاً يمثلون سوريا ولبنان وفلسطين وشمال الجزيرة العراقية وارسلتهم الى عاصمة السلطنة للاغراض التالية<sup>(٢)</sup>

١ - لعرض اخلاص السوريين وشعورهم على سدة الخلافة الاسلامية

٢ - لمشاهدة عظمة الدولة واستعدادها الحربي

٣ - بث عواطف اهل البلاد الى اخوانهم الغزاة المجاهدين

وبعد ان قضوا نحو شهرين هناك بين مآدب تكريمية ومشاهد حربية ، وحفلات خطابية ومواقف شعرية عادوا الى اوطانهم يقصّون على الملا ما شاهدوا وسمعوا وقد دونوا لنا اقوالهم ومشاهداتهم في الكتاب المذكور واليك بعض النماذج منها -

فقرات من خطب القيت في حضرة وزير الداخلية<sup>(٣)</sup> - يا صاحب الدولة والفضل :-  
« ان الانقلابات التي وقعت منذ نشرتم واخوانكم احرار العثمانيين القانون الاساسي في السلطنة قد علّمت الناس وولاة امورها تعاليم كثيرة . فتعلمنا بالحرب البلقانية والحرب الطرابلسية كيف نجتمع شملنا ونسير في داخلتنا وخارجتنا . حتى اذا نشبت الحرب العامة اثبتنا اننا امة لا تزال حية »

(١) المطبعة العلمية ١٩١٦ (٢) البعثة العلمية ص ٢٥٢

(٣) راجع الكتاب المذكور ص ٦٥ - ٥١

« كان اناس قليلون في ديار الشام يهيمون في سرهم في اوائل النفي العام بقولهم : ما لنا وللحرب ؟ ان الحياذ ابقى علينا واسلم لكياننا . ولم تكن الا مدة قليلة حتى عرف الخاص والعام بان الحرب مع دول الاستعمار كانت مقررة لحياتنا السياسية والمالية » كانوا يقولون ان في الحرب خراب البلاد ولكن حربنا الحاضرة والحمد لله قد عمرت بلادنا وتحصت الناس فتيين الحائن المائث من الوطني المخلص ، والحامل من العامل ، والجاهل من العالم . ولو لم توفق الحكومة الى انتداب امثال جمال باشا واخوانه الولاة لسياسة سورية اثناء هذه الازمة لثم فيها المضحك المبكي . ومن الثاني :- « يا صاحب الدولة - ان قدوم هذا الوفد العلمي المنتخب من خيرة علماء الدين الى دار الخلافة الاسلامية الكبرى والامامة العظمى لاداء فروض العبودية وواجب الاخلاص لعرش الخلافة الاسلامية المقدس واهداء سلام الشعب السوري الى الابطال المجاهدين في جناق قلعة وساحات القتال واطهار ما يكتنه الشعب من عظيم الشكر لاولئك الابطال الذين دافعوا عن حوزة الخلافة وحياض الدين دفاعاً مجيداً خلّده لهم التاريخ بأحرف من نور ... هو أنصع برهان على السعي وراء تلك الغاية الشريفة ، وتمكين عرى الرابطة المحمدية والاتحاد الاسلامي ، وتوطيد دعائم الجامعة العثمانية تحت ظلال الهلال المظفر الذي سيحقق ان شاء الله بفضل جهادكم المشكور عن قريب في ربوع قفقاسيا وفوق وادي النيل »

وبما قيل في حضرة ولي عهد السلطنة : - «<sup>(١)</sup> بيت عثمان ياذا الايادي البيضاء على هذه الامة انك جمعت شمل المسلمين تحت لواء الهلال المنصور قروناً وستكون كذلك ابد الدهر ، فكيف لا تتأصل محبة اركانك في قلب كل وليد »

وبعد ان يعرض الخطيب للعلاقات المتينة بين العرب والترك ولفضل العثمانيين في هذه الاخوة المقدسة يقول - « فكننا امام العادين من دول الغرب في كل وقت نحارب معاً ونعود ظافرين ببركة هذه الاخوة ونحن اليوم كذلك في هذه الحرب الحاضرة وسنكون غداً وبعد غد والتوفيق حليف عملائنا الذي يظلمنا بفضلكم يا بني عثمان وحفظة بيضة الدين والايمان » . وعلى هذا النسق اكثر الادب السياسي المنشور او كله في ذلك العهد . ولم يختلف عنه الادب المنظوم ، ففي مجموعة « البعثة العلمية » نحو من سبع عشرة قصيدة لبضعة شعراء كعلي الريماوي وعبد الكريم عويضة ، وحسين

الحبّال ، وبدر الدين النعساني وسوام وكلها ترمي الى نفس الغرض - واليك أمثلة منها . قال أحدهم من قصيدة : -<sup>(١)</sup>

يا رجالَ الملكِ إنا أمةٌ لا ترى عن آلِ عثمانٍ بديلٌ  
حيّهما يا وفدُ حيّ جندها قاهرُ الأعداءِ بالسيفِ الصّقلِ  
نصرَ الدينِ وأعلى شأنه فعدا الإسلام في ظلّ ظليلِ

ومنها مشيراً الى تراجع اسطول الحلفاء امام قلاع الدردنيل

حيّ قوماً ادهشوا كل الوري بثبات العزم والصبر الجميلِ  
قهروا الاسطول في البحر فما ابجر الاسطول ان عاد ذليلِ  
دافعوا عن حوزة الملك بما يحفظ التاريخ جيلاً بعد جيلِ  
وبنو الشرق الى مصر انبروا «وجمال الدين» للفتح كفيلِ

وينوّه بذلك الى الحملة التي كان يعدّها جمال باشا لعبور ترعة السويس ودخول مصر وللشيخ الرماوي قصيدة خاطب بها جمال باشا عند عودة الوفد وهي نحو ٥٤ بيتاً وفيها يصف ما رآه الوفد في الاستانة ومقابلتهم لاركان الدولة هناك فيقول<sup>(٢)</sup>

فجئنا الى دار السعادة والمنى محطّ رجال العزّ والعزّ يُقصدُ  
وزرنا عبيد الملك يسو عماده وزرنا وليّ العهد بالفضل يُعهدُ  
تحفّ بنا القواد من كل جانب واقطاب دار الملك تحفى وتحفدُ  
ومنها - خطبنا لهم جمّاً وقد خطبوا لنا وانشد منا القائلون وانشدوا  
مجالس كانت كالربيع بواسماً ذكرناك فيها والحقيقة تشهدُ

\*\*\*

ومنها - رجعنا وما بالقول شيء ليعرب ولا يعرب ينسى الجميل ويجهدُ  
على اننا ابناء دين محمد يحكّم هذا الحبّ فينا ويعقدُ

وله قصيدة اخرى مطلعها

تيقظتم حزمًا فأيقظتم الدهرا واعلمتم عزمًا فأدهشتم العصرا

وفيها يقول<sup>(٣)</sup>

سلامٌ عليكم ما اجلٌ فعالكم سلامٌ على الدستور حلوا مذاقه  
حماة الهدى والملك لله دركم ومنها - سعيتم فقرتتم بني العرب منكم  
فكانوا لكم أزرأ على كل خارج يعدون هذا الملك فيهم ومنهم  
فكنتم نجاد الملك والعرب سيفه واعظم في الايام آياتها الكبرى  
وان كان بعض الناس قد ذاقه مرأ على الحضم قد طبقم البوء والبحرا  
وقلتم هم الاخوان في الضر والسرا عدو وما كانوا وحقكم وزرا  
ولا ينقمون الترك سرأ ولا جهرا وكنتم يمين الملك والعرب اليسرى

ونختم هذه الامثلة ببعض ابيات من قصيدة لبدر الدين النعساني في احمد جمال باشا.

قال : (١)

لئن أكثر المداح فيك القصائد فمابلغوا في الالف من ذاك واحدا  
ومنها : رمى الله منك الانكليز بصارم عتوا وأبوا الا لقاءك في الوغى  
اقاموا على شط القتال معاقلاً قطعتم اليهم بالجيش مفاوزاً  
لقد عز جيش كنت فيه رئيسه فلم ار مثل اليوم ارفع همه  
واطهر اخلاقاً واصفى سريرة وقفت على عليك فيض يراعي  
صقيل يقدر الهندواني غامدا اراهم بما راموه منك حصائدا  
ستبقى لهم يوم اللقاء مصيدا بها الصرصر النكباء تشكو الجلامدا  
وعزت جموع كنت فيهن رائدا واعظم آثاراً واكثر حاشدا  
وانجب مولوداً واكرم والدا ونفسي وفكري والقوا في الشواردا

هذا هو الادب الحكومي الذي كان ينشر في سوريا والعراق . وهو ولئن لا يجوز اعتباره وصفاً صادقاً لحوادث ذلك العهد ورجاله فانه بلا شك صورة غير كاذبة لما كانت تثيره الحالة السياسية في الصدور من رهبة ورغبة او هوس ديني . واذا عرفنا زمانه ومكانه واستطعنا ان نقرأ ما بين السطور تجلّي لنا فيه من المشاهد ما قد يساعدنا على فهم كثير من الحقائق

وما يصدق على سوريا والعراق قد يصدق على مصر ايضاً. الا ان المشهدين يختلفان. فمصر كانت عاطفتها كما وصفها الدكتور محمد حسين هيكل بقوله (٢) - «تتجه حتى العصور

الاخيرة الى جهتين - تتجه صوب مكة ومكة في بلاد العرب والنبي عربي والقرآن عربي . وهي تتجه او كانت تتجه صوب الاستانة مقر الخلافة الاسلامية والاستانة عاصمة الترك . فكل مسلم تعنيه وحدة المسلمين كان يتجه ببصره - الى حين النيت الخلافة - نحو مكة والاستانة : يستمد من الاولى المدد الروحي ومن الثانية مدد السيف والمدفع . ومع كل ذلك لم تحرك مصر ساكناً حين اعلن وزير الخارجية البريطاني في ١٨ ديسمبر ١٩١٤ « انه بالنظر الى حالة الحرب التي سببها عمل تركيا قد وضعت بلاد مصر تحت حماية جلالته واصبحت من الآن فصاعداً من البلاد المشمولة بالحماية البريطانية . وبذلك قد زالت سيادة تركيا على مصر الخ<sup>(١)</sup> » وما ذلك الا لان السلطة البريطانية اصبحت يومئذ الكل وفي الكل . وصار المصريون يشعرون انهم انما يعيشون في ظل سيفها المصلت . فلم يكن من الغريب ان نرى الشعراء يتبارون في التقرب من السلطان حسين كامل - كاسماعيل صبري واحمد شوقي وحافظ ابراهيم وولي الدين يكن وسواهم . وهذه قصائدهم فيه تشهد بانقلاب الحال او بالتقية حتى ان حافظاً الوطني الصميم وصاحب المواقف المشهورة قبل الحرب لم يتورع عن ان يقول في الانكليز مخاطباً السلطان<sup>(٢)</sup>

ففس للنيل سلطاناً ابياً له في ملكه عقد وحل  
ووال القوم انهم كرام ميامين النقية ابن حلوا  
هم ملك على التاميز<sup>(٣)</sup> اضحت ذراه على المعالي تستهل  
وليس كقومهم في الغرب قوم من الاخلاق قد نهلوا وعلوا  
فان صادقتهم صدقوك ودآ وليس لهم اذا فتشت مثل

اما شوقي شاعر الحديو عباس ( خصم الانكليز ) فقد كانت قصيدته في السلطان حسين كامل « لعبة » فنية حاول فيها الجمع بين وفائه لاميره السابق والواجب عليه للسلطان الجديد وتجنب سخط الانكليز . وقد توفق الى حد يذكر له . اذ قال مشيراً الى عباس :

الله يعلم ما كفرتُ صنيعاً في ذا المقام ولا جحدت جميلاً

(١) الهلال ٢٣ - ٣٢٦ راجع أيضاً فيه بلاغات الوكالة البريطانية

(٢) الهلال ٢٣ - ٣٣٧ (٣) نهر لندن

ثم في اعتذاره عن مدح الامير الذي حل محله  
 | الخون اسماعيل في ابنائه ولقد ولدت بباب اسماعيل  
 ولم يستطع الا ان يقول كلمة في الانكليز فقال :

حلفاؤنا الاحرار الا انهم ارقى الشعوب عواطفاً وميولاً  
 اعلى من الرومان ذكرآ في الوري واعز سلطاناً وامنع غيلاً  
 لما خلا وجه البلاد لسيفهم ساروا سماحاً في البلاد عدولا  
 واتوا بكبرها<sup>(١)</sup> وشيخ ملوكها ملكاً عليها صالحاً مأمولاً

على انه لا بد من القول ان الشعر المصري الحكومي برغم اضطرابه الى مجارة  
 السلطة لم يبلغ في تلك المجارة مبلغ الشعر السوري والعراقي ، بل ظل اكثر تحفظاً  
 واقل تطرفاً<sup>(٢)</sup> . واذا كان في مصر يومئذ من غارات ادبية عنيفة على الاتراك فمنشؤها  
 في الاكثر الاوساط اللامصرية تشهد بذلك جرائدهم ونفثات اقلامهم . ولم يكن على  
 ما يظهر مبعثها التملق او التعصب بل الاقتناع ( خطأ او صواباً ) ان الخلاص من  
 تركيا سيكون فاتحة عصر جديد يحمل الى الافطار العربية انوار المجد والسعادة

\*\*\*

اما الادب السياسي العمومي ( اي ما كان خارج دوائر السلطة ) فمتشابه في جميع  
 الافطار اذ هو منبعث عن شعور الناس بوطأة الحرب . ومن الطبيعي ان يكون اثره  
 في مختلف البيئات بالنسبة الى شدة تلك الوطأة او خفتها ، كما يتضح لنا اذا قابلنا ما  
 نظم منه في مصر بما نظم في العراق وسوريا ولاسيا بيروت ولبنان حيث بلغت المحنة  
 اشدها . ومن شواهد تلك القصائد التي قبلت في احوال الحرب وفضائعها كقصيدة  
 الزهاوي « مشهد من الحرب الكبرى » ومنها<sup>(٣)</sup>

في كل ارضٍ وصقع مدافعٌ ثائراتٌ  
 يقتلنَ كلَّ فتًى قد تفيد منه الحياةُ  
 وليس يبقين الا اراملاً وبتامى

\*\*\*

(١) اي بالسلطان حسين كامل (٢) بل كان بعضه جريئاً على السلطة المحتلة . راجع  
 قصيدة عبدالمطلب في الحرب العظمى ديوانه ١٥٩ (٣) ديوانه (١٩٢٥) ١١٤

هناك بحرٌ خَضَمَ يجري لبغمر بحرا  
هناك بركانٌ نارٌ تسعى لتأكل اخرى  
هناك جيشٌ لهامٌ يؤمّ جيشاً هُما

\*\*\*

من قارعاتٍ صباحاً يهتزّ منها المكانُ  
وبارقاتٍ مساءً يحمرّ منها الدخانُ  
وناسفاتٍ بلبيلٍ يبعثنَ موتاً زواما

\*\*\*

القتل قتلٌ ذريعٌ والحطّ خطبٌ جسام  
فوق الرغام دماءٌ يحمرّ منها الرغام  
والارض تشرب منها ولا تبلّ أواما

وكقصيدة أنشدت في بيروت سنة ١٩١٥ موضوعها « متى تضع الحرب أوزارها »

ومنها: (١)

ربوعُ الحضارة امست محطّ النور ومنتجع الاضبعِ  
وإن ابن آدم شرّ الضواري اذا هاجه هائج المطمعِ  
ففي الحرب سلّ عنه نيوانها وُحمر الدماء على اليرمعِ  
واسلاء قتلى ابادهم مبيدٌ من السيف والمدفعِ

ولو اردنا ان نحلّل القصائد التي تضمنت وصفاً للحرب وبلاياها لضاق بنا المقام  
ويكثر فيها وصف محن الناس من بؤس وجوع وخوف وتومل نساء وتيم أطفال  
وما الى ذلك بما يدخل اكثره في باب العوامل الاجتماعية . ونحيل القارئ الى  
القصائد التالية - وهي حرة بالمراجعة : من ويلات الحرب للرصافي ديوانه (١٩٣١)  
٢٢٣- قطع شتى لوديع عقل ديوانه ٨٨-٩٢- بيروت في الحرب لطانيوس عبده (ديوانه  
٤١)- الحرب العظمى لكاظم الدجيلي (الهلال ٢٧-٧٤٨) - الجزيرة العظمى لمحمد باقر  
الشبيبي (المقتطف ٥٠-٥٨٦) - الحرب والمؤاساة لمحمد الهراوي (المقتطف ٥٣-٩١)  
- الحرب لعلي الجارم ديوانه ٢-١١٨



# النهضة العربية القومية

## وأثرها الادبي

﴿توطئة﴾ للعرب في تاريخهم القديم ثلاث نهضات بارزة . الاولى دينية مهدها الحجاز وقد بلغت اوجها بظهور الاسلام وانتشاره في قسم كبير من المعمور . والثانية قومية . وليس بالهين فصلها عن الاولى ، على انها تبرز بشكل خاص في العهد الأموي ففيه كان للعرب سلطنة عظيمة الشأن تمتد من حدود الهند الى الاندلس . وكان العرب فيها اهل الادارة والسلطان ، بسيفهم تحاط الدولة والى خزائنها تجبي الاموال . واما النهضة الثالثة فعلية لغوية ، وقد بدأت بالنمو منذ ظهور الاسلام وما زالت حتى بلغت عصرها الذهبي في بغداد وبعض الحواضر الاخرى . ويراد بها ما قامت به اللغة العربية يومئذ من نقل العلوم القديمة والتوسع فيها وما عُرف من ازدهار معارفها وآدابها ومن المعلوم ان العرب فقدوا بعد الامويين مقامهم السياسي الممتاز في الشرق واخذوا بعد العصر العباسي الاول بالتراجع امام سائر العناصر . ولم يلبثوا في الشرق عقب انحلال الخلفتين العباسية والفاطمية ، ان دخلوا في حكم الدول الاعجمية وآخر هذه الدول السلطنة العثمانية التي يمتد حكمها عليهم من سنة ١٥١٦ م الى نهاية الحرب العالمية الاولى ١٩١٨

ولا نرى قبل القرن التاسع عشر ما يشير الى يقظة قومية للعرب ، فقد كانت قوميتهم في سبات عميق . واول من حاول ايقاظها على ما يظهر لاغراض سياسية محمد علي الكبير (مؤسس البيت المالك المصري) او قل ابنه ابراهيم باشا ، وكان ينوي انشاء دولة عربية مركزها القاهرة<sup>(١)</sup> لكن مشروعه لم يتم . ولا يظهر ان البلدان العربية التي نؤرخ ادبها الحديث ( مصر وسوريا والعراق ) تأثرت يومئذ تأثراً جدياً بهذا المشروع

(١) راجع ما ذكرناه في مستهل الفصل الاول ( مقتطف فبراير الماضي ) وكذلك تاريخ الحركة القومية لعبد الرحمن الرافعي ( طبع ١٩٣٠ ) ص ٢٣٣ و ٢٦١

او سعت لتحقيقه ، على ان البذرة وضعت في الارض وترك للزمان إنباتها بقي الحال كذلك الى الثلث الاخير من القرن التاسع عشر ، وكانت مصر قد استقلت بشؤونها الداخلية عن الدولة العثمانية ، والنهضة العلمية قد بدأت في سوريا ولبنان بتنشيط بعض اعلام الحكام كراشد باشا ومدحت باشا<sup>(١)</sup> واضرابهما ، فتهياً من كل ذلك بواعث لحركة ادبية تعبّر عن احلام العرب وخوارجهم القومية . ومن هذا القبيل جملة من القصائد والخطب الوطنية التي كان لها اثر يذكر في تخمير الافكار واذكاء الروح القومية وسنذكر شيئاً منها بعد

ومن ظواهر تلك اليقظة القومية الاتجاه نحو انشاء جمعيات تطالب بحقوق العرب في السلطنة العثمانية والحضّ على إنباضهم ، كالجمعية التي تأسست سنة ١٨٨١ باسم « جمعية حفظ حقوق الملة العربية » وقد نشرت نداءً الى العرب من مسلمين ومسيحيين تحت عنوان « بياناهم الامة العربية » تدعوهم فيه الى الاتحاد والمطالبة بالحقوق القومية<sup>(٢)</sup> ويبدأ هذا النداء بمخاطبة المسلمين فيلفت نظرهم الى ظلم تركيا ويختم ذلك بقوله -

« فأين انتم واين هم ؟ من منكم اليوم امير ومن منكم اليوم وزير ومن فيكم اليوم مدير ؟ بل كل واحد منكم فقير ، وكبيركم مثل صغيركم حقير ، والمال والآمال بأيدي الترك الخ » ثم يلتفت الى المسيحيين فيقول لهم -

« اتحدوا مع المسلمين واستعدوا للنوال حريبتكم من المعتدين فان الترك يخشون بأسكم فلا يمسّونكم ولا ينتهكون حرمتكم خوفاً من القناصل . فاتحدوا بقلب مع اخوانكم المسلمين فان مرجع مصالحكم الى واحد »

ويظهر ان بعض ذوي المصالح او ذوي العطف الانساني من الاتراك كانوا يظهرون العرب في اتجاههم القومي ، فقد ذكرت جريدة المشير ان جماعة من شبان العرب والاتراك اجتمعوا في باريس لتأسيس جمعية عربية وغاياتها<sup>(٣)</sup>

١ - ان يدافعوا عن حقوق العرب جميعاً مهما تباينت مذاهبهم

٢ - حفظ الامة العربية تحت ظلّ الراية العثمانية في وضع قانون اساسي للخلافة

٣ - ان يساوى بين العرب والترك في كل شيء

٤ - اجراء الاصلاحات الواجبة بالطريقة الواقعة ( اي بالفعل )

(١) راشد باشا كان والياً على سوريا سنة ١٨٦٣ - ٦٨ ومدحت بعده بقليل

(٢) جريدة المشير ٢٩ مايو ١٨٩٥ (٣) المشير ١٩ ديسمبر ١٨٩٦

٥ - استقلال كل ولاية من الولايات (العربية) بماليتها وتخصيص ولايتها بوال عربي او معاون عربي . ( وهو كالنظام اللامركزي الذي كان يسعى اليه الاصلاحيون قبيل الحرب الكبرى كما سنرى بعد )

ويلوح لنا ان هذه الجمعية هي نفس الجمعية التي يذكرها سيمونسكو في جريدة الجورنال الفرنسية اذ يقول<sup>(١)</sup> « في العام ١٨٩٥ بدأت حمى الاسلام بالارتفاع عند ما تأسست في باريس عصبة الوطن العربي وكان لهذه العصبة قاعدتان جوهريتان هما التحرر من الاجانب واتحاد البلدان العربية تحت سلطة موحدة وزمنية »

ولعلّ عصبة الوطن العربي هي الجمعية الوطنية العربية التي يذكرها الاعظمي في كتابه « القضية العربية »<sup>(٢)</sup> . وسواء صح ذلك ام لم يصح فالواقع ان العرب اخذوا منذ ايام السلطان عبد العزيز يتنبهون الى حقوقهم ويطالب احرارهم بها ، وقد تركوا لنا من آثارهم الادبية في العهد السابق لدستور ١٩٠٨ ما لا يتروك مجالاً للشك في ذلك بيد ان هذا التنبه لم يبلغ بهم يومئذ مبلغ الرغبة الجدية في الانفصال عن تركيا وجل ما كانوا يطلبونه ان ينالوا حقوقهم في الدولة . وعلى ذلك يقول المقطم سنة ١٨٩٤ بعد ان يذكر النسبة العددية بين العرب والأتراك<sup>(٣)</sup> - « ان العرب مظلومون من حيث الادارة والمناصب وان جلالة السلطان لو علم الحقيقة لانصف العرب ونحن لا نشك بحسن نية السلطان ولكننا نشك في ان هذه الحقائق تصل اليه » . وأوضح من هذا القول تصريح خليل غانم ، مبعوث سوريا في المجلس العثماني الاول ( ايام مدحت ) وأحد مؤسسي جمعية تركيا الفتاة في باريس ، اذ قال<sup>(٤)</sup> - « ولا نطلب انفصال العرب عن الأتراك لان ذلك يؤول الى الحراب والاندثار . بل نطلب ونتمنى من صميم الفؤاد انضمام الملتين بل ادغامهما الواحدة بالآخرى بحيث تكونان امة واحدة ، ولكن على شرط المساواة في الحقوق والواجبات »

هذه الروح المسالمة تتجلى في اقوال جمهرة العرب العثمانيين على ان العصبيّة العربية التي رأينا تباشيرها تلوح منذ اصيل القرن الماضي لم تقف دائماً عند حدّ المسالمة بل كثيراً ما كانت تفور في نفوس طبقة من الاصلاحيين ساخطة على الأتراك مهيبة

(١) عن صوت الاحرار (بيروت) ٣٠ سبتمبر (ايلول) ١٩٣٧ (٢) طبع ١٩٣١ ص ٢٨

(٣) المقطم عدد ١٧٢٨ (٤) المشير ٢٥ يناير (ك) ١٨٩٥ ( راجع سيرته في تاريخ

الصحافة لطرازي ج ٢ )

بالعرب الى استرجاع مجدهم التاريخي ويمثل هذه الطبقة اثنان هما ابراهيم اليازجي (١٨٤٧ - ١٩٠٦) وعبد الرحمن الكواكبي (١٨٤٩ - ١٩٠٢) فلننظر في الدور الذي قام به كل منهما -

﴿اليازجي﴾ ولقد يعجب البعض لزجنا ابراهيم اليازجي في هذا المقام وهو المعروف بالتنقيب اللغوي والبعد عن تيار السياسة . على ان الذي يطالع شعره في ابان شبابه يرى فيه عربياً شديداً النزعة القومية . ودليلنا على ذلك بعض قصائده التي نظمها ( وهو في نحو العشرين او بعدها بقليل ) فأحدثت في نفوس الناس هزة لا يزال اثرها الى الآن . ومنها ثلاث قصائد أولاها قصيدة انشدها سنة ١٨٦٨ في الجمعية السورية ومطلعها<sup>(١)</sup> -

سلاماً ايها العرب الكرام      وجاد ربوع فطركم الغمام  
لقد ذكر الزمان لكم عهداً      مضت قدماً فلم يضع الدمام

ويتقدم الى وصف مجالس العلم وأربابها ثم يعود الى ذكر العرب فيقول مفاخراً: -

وما العرب الكرام سوى نصال      لها في أجفن العلياً مقام  
لعمرك نحن مصدر كل فضل      وعن آثارنا أخذ الانام  
ونحن اولو المآثر من قديم      وإن جحدت مآثرنا اللثام

ويأخذ من هنا بتعداد اجداد العرب الأول في العراق والشام والحجاز واليمن والاندلس ويختتم ذلك بقوله -

ولسنا القانعين بكل هذا      وليس لنا بعروته اعتصام  
ولكننا سنجهد للمعالي      الى ان يستقيم لنا قوام

والقصيدة الثانية بائية وهي تلتب حماساً ومطلعها<sup>(٢)</sup> -

تنهوا واستفيقوا ايها العرب      فقد طمس السيل حتى غاصت الركب  
فيم التعلل بالآمال تخدعكم      وانتم بين رآحات القنا سلب

(١) راجع الآداب العربية في القرن التاسع عشر لشيخو ٢ - ٣٧ (٢) راجع نصها في الشهر ٢٥ ابريل ١٨٩٦ وفي مجلة الاصلاح ( بونس ابرس ) ٤ - ٤ وفي القضية العربية للاعظمي ١ - ٤٣ . ولا يذكر المشير اسم ناظمها . وتقزى في سر مملكة ٧٣ الى أحد مشائخ المسلمين . أما سائر المصادر ومنها زبدان في تراجم مشاهير الشرق ٢ - ١١٩ فتتفق على ان صاحبها اليازجي

كم تظلمون ولستم تشتكون وكم تستغضبون فلا يبدو لكم غضب  
ومنها فشمروا وأنفضوا للامر وابندروا من دهركم فرصة ضئت بها الحطب  
لأنتم الفئة الكثوى وكم فئة قليلة تم إذ ضمت لها الغلب  
ثم يشير الى الاتراك فيقول : -

سلاحهم في وجوه القوم مكرهم وخير جندهم التدليس والكذب  
لا يستقيم لهم عهد اذا عقدوا ولا يصح لهم وعد اذا ضربوا  
وتأخذه الحماسة القومية فيصبح :

بالله يا قومنا هبوا لشأنكم فكم تناديكم الاسفار والخطب  
ألستم من سطوا في الارض واقتحموا شرقاً وغرباً وعزوا أينما ذهبوا  
فما لكم ويحكم أصبحتم هملاً ووجه عزكم بالهون منتقب  
لا دولة لكم يشتد أزركم بها ولا ناصر للخطب ينتدب  
أقذاركم في عيون الترك نازلة وحقكم بين أيدي الترك مغتصب

وكلّتها على هذا النمط من اثاره الحفاظ والعصية الجنسية  
أما الثالثة فهي السيئية المشهورة . قال سليم سر كيس : « ان الذي تولى نشرها  
في دمشق جمعية نظمت ايام مدحت باشا . وقد كانت لنشرها رنة في البلاد فارسلت  
التلغرافات الى الاستانة وازداد عدد البوليس السري والقت الحكومة القبض على  
كثيرين »<sup>(١)</sup> . ولما كانت قد نشرت كاختها البائية غفلاً من التوقيع فقد اختلف في  
ناظمها على ان أكثر المصادر<sup>(٢)</sup> تعزوها الى البازجي وهي قصيدة طويلة قد تزيد على  
الستين بيتاً وهاك بعضها<sup>(٣)</sup>

دع مجلس الغيد الاوانس وهوى لواحظها النواعس  
ومنها أي النعيم لمن يبيت على بساط الذل جالس  
ولمن تراه بائساً ابداً لذيل الترك « بائس »  
ولمن ازمته بكف عداه يظلم وهو آيس  
ولمن تباع حقوقه ودماؤه بيع الحسائس

(١) سر مملكة ٦٧ (٢) ومنها زيدان راجع الهلال ١٧ - ٥٧٤

(٣) راجع نصها في سر مملكة ٦٤

ولن يرى اوطانه خرباً كاطلال دوارس  
وهنا يقف الشاعر على طول البلاد ويعتد اجادها الغابرة ثم يقول : -

فالترك قوم لا يفوز لديهم الا المشاكس  
اولستم العرب الكرام ومن هم الشتم المعاطس  
فاستوقدوا لقتالهم ناراً تروّع كل قابس

ويدعو العرب الى الاتحاد مندداً بالشقاق والتعصب الديني ومثيرة في نفوس العامة  
ثم يقول :

ساد الفساد بهم فساد الترك فيه بلا معاكس  
كم تأملون صلاحهم ولهم فساد الطبع مائس  
ويغركم برق المنى جهلاً وليل اليأس دامس  
عمت قبايحهم فأضحت لا تحيق بها الفهارس  
حالة بها طاب التبسم للوغى والموت عابس  
وحلا بها سفك الدماء فسفكها للجور حابس

ولم تكن هذه النفثات الشعرية نسيج وحدها في تلك العهود بل ظهر مثلها كثير  
في البلاد العثمانية والمهاجر . وكلها تم على تخمير قومي احداثه الاحوال الجديدة في  
نفوس الشبيبة لذلك العهد

عبد الرحمن الكواكبي ١٨٤٩ - ١٩٠٢ كان هذا الاديب الحلبي اصلاحياً  
حرراً . وقد اوصلته نزعته الحرة الى السجن . ثم الى هجرة تركيا والطواف في افريقيا  
وبلاد العرب والهند<sup>(١)</sup> . وله كتابان معروفان هما « طبائع الاستبداد » و « ام القرى »  
والاول دعوة جريئة الى الحرية والتخلص من قيود العادات الاجتماعية المضرّة . اما  
الثاني ، وهو الذي يهنا هنا ، فمن العوامل الفعالة في ايقاظ الشعور القومي بين العرب ،  
اذ هو يدعو الى خلافة عربية مركزها الجزيرة العربية<sup>(٢)</sup> ويسرد لذلك اسباباً كثيرة  
نذكر منها ما يلي<sup>(٣)</sup> -

(١) راجع سيرته في الجزء الاول من تراجم مشاهير الشرق لزيدان - وفي اعلام النبلاء  
للطباخ ج ٢ . ومجلتي المقنطف والمناذر ( سنة ١٩٠٢ ) ( ٢ ) ام القرى ١٧٢  
( ٣ ) ام القرى ١٦٠

(١) عرب الجزيرة هم مؤسسو الجامعة الاسلامية لظهور الدين فيهم  
(٢) عرب الجزيرة اقوى المسلمين عصبية واشدهم انفة لما فيهم من الخصائص البدوية  
(٣) لغتهم اغنى لغات المسلمين في المعارف ومصونة بالقرآن الكريم من ان تموت  
وهي اللغة العمومية بين كافة المسلمين

(٤) والعرب اعرف الامم في اصول الشورى وفي الشؤون العمومية  
وليس من شأننا في هذا المقام ان نشرح نظرياته اثباتاً او تجريباً وانما نحن نعرضها  
تدليلاً على ما كان محتجج في بعض النفوس يومئذٍ واسارة الى تلك الحوافز القومية التي  
تركت اثرها في الادب العربي

وقد اجمع العلماء والادباء على وصفه بمكارم الاخلاق والشغف بالحرية والاصلاح  
والجراة على الجهر بما يراه مفيداً لبلاده . وذهب بعضهم الى نقد عنفه ومرارة لهجته  
قال الطباخ<sup>(١)</sup> « ولعلّ غليان دم الشباب في فؤاده وقتئذٍ ، وتلك النفس المفقورة على  
الاباء المتعشقة منذ الطفولية لمحاسن الاصلاح المتطلعة اليه تطلع الاسد الى فريسته هي  
التي اهابت به ان يطلق لجواد قلبه العنان في هذا الميدان ، وحال حبه الشديد  
لاوطانه وشغفه العظيم بانتظام احوال بلاده بينه وبين التطلع الى امامه ، والالتفات  
الى ما كان حوله فكبا براعه ، ولكل جواد كبوة وكان ما كان ، والامور مرهونة  
باوقاتهما »

وكيفما كان الامر فان الكواكبي كما قال المقتطف<sup>(٢)</sup> « من كبار رجال النهضة  
الحديثة في هذه الديار الا ان المحيط لم يساعده والاجل لم يمهل حتى يتم مقاصده  
السياسية والدينية . على ان النعمة التي ضرب عليها قد اسمعت بعض الناس . ولو لم يهبط  
مصر لكان دفن مع من دفن في تلك البلاد ( اي العثمانية ) ولم يُعرف عقله ولا فضله »  
فالكواكبي ، كما يتبين لنا من اقواله واعماله ومن آراء اهل الثقافة فيه ، عامل  
قوي من تلك العوامل التي حرّكت نفوس الناطقين بالعربية وخمّرت قلوبهم بروح  
الغيرة العنصرية

ومن الخطأ ان نحصر هذا العمل التخيري في هذين الاديبيين فقد كان مثلهم جماعة  
من ذوي الاثر البين في النهضة القومية - منهم اديب اسحق ( ١٨٥٦ - ١٨٨٥ ) ولم

يكن اديب من المناوئين للعثمانية، وليس في ادبه ما يشتم منه روح الثورة على نظامهم السياسي . على ان فيه تلك الجرائم القومية الخمسة التي تغلب على ادب الاحرار لذلك العهد. واذا كان لا يهاجم الحكومة العثمانية كاليازي والكواكي فهو يجاريهما في الدعوة للقومية العربية والكرامة الوطنية . والذي يبرز في ادبه دأبه على تحريك الروح الشرقية وتعزيزها . فهو يناضل عنها في مصر وسوريا، وهو في طليعة المناصرين للاحزاب الوطنية الرافعين للواء الحرية . ومن الطبيعي ان يكون في رسالته الشرقية ما يهيب بمواطنيه الى احترام انفسهم باحترام لغتهم وتاريخهم . ومن أمثلة ذلك قوله من خطاب مشهور موضوعه دولة العرب<sup>(١)</sup>

«شعلة سرت من الحجاز فانارت الشام والعراقين ومصر والمغرب والهند واتصلت بأطراف الفرنجة فملأتها نوراً وناراً . فهي بنورها تستضيء ومن ناراها تكتبس » وبعد ان يذكر فتوح العرب يقول على طريقته الخطابية : —

« فسارت اسود رجالها على طيور خيولها تطوي الصعاري وتقطع الفدافد ، حتى نطحت بروقي عزمها شرفات الايوان ، ونسرت من الشرق نسر الرومان ، ونشرت على مصر اعلامها وضربت في الاندلس خيامها »

ويأخذ من هنا بمقابلة العرب الأول بعرب اليوم مهيباً بهؤلاء الى الاتحاد ، داعياً اياهم الى تلافي حالهم قبل فوات الاوان . ويقترح لهذه الغاية اجتماعاً عربياً يتذكرون فيه شؤونهم ويطالبون بحقوقهم . وكأنه شعر بتشاؤم البعض او حذرهم من مثل هذا الاجتماع فقال منشطاً ومثيلاً للهمم

« أيجسبون ذلك الصوت لا يكون له من صدى ، أم يجسبون أن يذهب ذلك الاجتماع سدى . أو لا يعلمون ان مثل هذا الاجتماع منزهاً عن المقاصد الدينية ، منحصرأ في العصبية الجنسية والوطنية، مؤلفاً من اكثر النحل العربية، يزلزل الدنيا اضطراباً ويستبيل الدول جذباً وارهاباً ، فتعود للعرب الضالة التي ينشدون والحقوق التي يطلبون »

وليس هذا الكلام اول ما اداه من الرسالة العربية وآخره بل في تضاعيف اقواله كثير مما يوقظ النفوس ويثير النخوة القومية



ومن هذه الطبقة الشيخ يوسف النبهاني ، ونجيب العازوري اللبناني ، وقد اصدر هذا الاخير سنة ١٩٠٥ كتاباً سماه بقظة الامة العربية استعنت فيه العرب على استرداد حقوقهم المهضومة<sup>(١)</sup> والشاعر المشهور الشيخ نجيب الحداد وهو القائل من قصيدة<sup>(٢)</sup> -

آن الاوان لان اخاطر بالدم من لم يخاطر بالدم لم يسلم  
أجزيرة العرب التي احبتها كم من اكفٍ قد رمتك بأسهم  
لعبت أكف الترك فيك فغادروا في كل قطر فيك نهراً من دم  
قتلوا رجالك واستذلوا من بقي فبقيت صرعى للبين وللغم  
وغدا العراق مع الحجاز غنية وبلاد نجد سيّئة المتقسم  
فلينقذ الله العلي جنوده وليحفظ العرب التي لم تأثم

وقد ادرك هذه الطبقة طبقة متأخرة كان لها يد كبيرة في ايقاظ الروح القومية وسيرد ذكرهم في غير هذا المقام

بمثل هؤلاء الرواد القوميين من كتبة وشعراء اخذت النفسية العربية تستيقظ من سباتها العميق . فلم يكد فجر القرن العشرين ينبثق حتى كانت العاطفة القومية قد اخذت تحرك القلوب والاقلام . وكان لها في الادب اتجاهات ظاهرة اظهرها تلك المفاخرة بالابجاد السالفة . وتلك الغيرة الملتهبة على اللغة الوطنية والتشكي من اهمالها . كقصيدة حافظ ابراهيم « رجعتُ لنفسي فاتهمت حصاتي » . ومنها ما جاء على لسان اللغة شاكية مما ألمّ بها -

انا البحر في احشائه الدر كامنٌ فهل ساءلوا الغواص عن صدقاتي  
ارى لرجال الغرب عزّاً ومنعةً وكم عزّ اقوام بعزّ لغات  
سقى الله في بطن الجزيرة اعظماً يعز عليها ان تلين قناتي  
حفظن ودادي في البلى وحفظتهُ هنّ بقلبٍ دائم الحسرات  
وفاخرت اهل الغرب والشرق مطرق حياءً بتلك الاعظم النخرات  
ارى كل يوم بالجرائد مزلقاً من القبر يدنيني بغير اناة

(١) القضية العربية للاعظمي ١ - ٢٨ (٢) اوردها الاعظمي في كتابه ١ - ٢٣ ولم نجد في ديوانه ولعلها من جملة ما كان ضائماً من آثاره يوم نشر الديوان . وله مقالة في استنهاض الشرق تجدها في الهلال ٣٠ - ٣٢٠

ايهجرتني قومي عفا الله عنهم الى لغة لم تتصل برواة  
سرت لوثة الأعجام فيها كما سرى لعب الافاعي في مسيل فرات  
والقصيدة كلها على هذا المنوال من تعظيم العربية وذم المعرضين عنها الراغبين في  
اللغات الافرنجية<sup>(١)</sup>

ومثلها قصيدة لمصطفى صادق الرافعي موضوعها اللغة العربية والشرق وفيها يقول<sup>(٢)</sup>  
أم يكيد لها من نسلها العقب ولا نقيصة الا ما جنى النسب  
كانت لهم سبباً في كل مكرمة وهم لنكتبها من دهرها سبب  
ومنها في تقلب الايام على هذه اللغة :

أتى عليها طوال الدهر ناصعة كطلعة الشمس لم تعلق بها الريب  
ثم استفاضت دياج في جوانبها كالبدر قد طمست من نوره السحب  
ثم استضاءت فقالوا الفجر يعقبه صبح فكان ولكن فجرها كذب  
ثم اخفت وعلينا الشمس شاهدة كانها لعنة في الجو تلهب  
كان الزمان لنا واللسن جامعة فقد غدونا له والامر ينقلب

ثم يلتفت الى طلاب الادب الاجنبي فيقول مؤنباً

انترك الغرب يلهونا بزخرفه ومشرق الشمس يبكيها وينتجب  
وعندنا نهر عذب لشاربه فكيف نتوكله في البحر ينسرب  
فهل نضجع ما ابقى الزمان لنا وننفض الكف لا مجد ولا حسب  
لما اذن سبة في الشرق فاضحة والشرق منا وان كتابه خرب

ويختم القصيدة بنشوة فخر فيقول

اذا اللغات ازدهت يوماً فقد ضمنت للعرب اي فخار بينها الكتب  
وفي المعادن ما تمضي برونقه يد الصدا غير ان لا يصد الذهب

وامثال هاتين القصيدتين كثيرة في الادب العربي<sup>(٣)</sup> ومصدرها كما ذكرنا غيره

(١) ديوانه (١٩٣٧) ج ١ ص ٢٥٣ (٢) ديوانه ٢ - ١

(٣) راجع منها قصيدة محمد الهاشمي في المورد الصافي ٧ - ٤٨

لغوية نشأت على أثر اليقظة القومية في النصف الاخير من القرن الماضي ولا تزال الى الآن . وتتقون بالغيرة على اللغة ما نظم في ابطال العرب الاقدمين ووقائعهم احياء لسالف المجد وانهاضاً لمائت الهمم . كقول الرصافي من قصيدة مقابلاً بين العرب اليوم والعرب قديماً

لهفي على العرب امست من جمودهم      حتى الجمادات تشكو وهي في ضجر  
ابن الجحاح بمن ينتمون الى      ذؤابة الشرف الوضاح من مضر  
قوم هم الشمس كانوا والورى قمر      ولا كرامة لولا الشمس والقمر  
راحوا وقد أعقبوا من بعدهم عقباً      ناموا عن الامر تفويضاً الى القدر

وقد اتصلت هذه الروح بالجمعيات الادبية في المعاهد العلمية وخارجها فالتهمت بها نفوس الناشئة وأخذوا في بدء القرن الحالي يتغنون بالاناشيد الحماسية . وهاك مثلاً منها نظم ١٩٠٦ في بيروت لاحدى الجمعيات العربية : -

لغة العرب اذكرينا      واذكري ما فات  
كيف ننساك وفينا      نفحة الحياة

\*\*\*

يا بني الشام ومصرِ      وبني العراق  
هل نسيم ذكر عصر      طَبَّقَ الآفاق

\*\*\*

كنتمُ فيما تمضي بهجة الازمان  
فلماذا اليوم نرضى حالة الهوان

ولشيوخ هذه الغيرة اللغوية والتاريخية وانتقادها في الادب يومئذ اسباب شتى منها - (١) اطراد الانتظام السياسي بمصر وظهورها بمظهر دولة عربية متقدمة (٢) اطراد التقدم العلمي والصحافي في الاقطار السورية والعراقية (٣) ان الاتراك برغم تشديدهم التكبير على طلاب الاصلاح كانوا لا يزالون يعتبرون العربية لغة الدين والثقافة الشرقية القديمة ويعدون انفسهم من حمايتها ومناصريها فلم يظهر منهم في ذلك العهد ما يوجب المتحمسين لها او يثبط عزائمهم

على ان من الانصاف التاريخي ان نعيد هنا القول ان هذا العمل التخيري الذي سرى في الاوساط الادبية قبل ١٩٠٨ لم يبلغ درجة النضج ولم يصل الى نفوس السواد من الامة . فكانت العواطف العمومية لا تزال غير منسّطة . وكان الادب العربي بين هذه الروح القومية الآخذة في الاستيقاظ ، وما ألفه من الجامعة العثمانية المرتبطة بالخلافة ، حيران لا يدري كيف يسير . فهو من جهة قومي ومن جهة عثماني - تارة يتغنى باجماد العرب ، وطوراً يتغنى باجماد العرش العثماني . وما زال في هذا الموقف الغريب حتى فوجيء بالدستور فذهبت حيرته ومرت عليه مدة كانت العثمانية الحرة فيها غاية المنشودة<sup>(١)</sup>



(١) وقد بسطنا ذلك في كلامنا على « الشملة الدستورية »

# الحركات العربية

## المنظمة وأثرها العربي

ذكرنا انه في الثلث الاخير من القرن الماضي ظهر في سوريا والعراق صيحات ادبية نهيب بأبناء العربية في السلطنة العثمانية ان يهتوا من رقادهم ويسعوا لاعلاء شأنهم . وقد كان لتلك الصيحات اثر يذكر في تنبيه الشعور ونفض غبار الخمول الذي تراكم عليه قروناً عديدة . على ان الامم العربية لم تكن قد وصلت في حياتها الاجتماعية والسياسية الى درجة التعاون المنظم . فلم تتجاوز تلك الصيحات حدّ اثاره الشعور ، بل لم يكن لها اثر بين الا في حلقات خاصة من اهل الثقافة . وظلّ الامر كذلك حتى أعلن دستور ١٩٠٨ فغمر البلاد العربية بموجة من الاخلاص والحماسة للوطنية العثمانية . لكن تلك الموجة لم تلبث كما بسطنا في غير هذا المقام ان تراجعت وضعف أثرها في النفوس . وقد دلّت العرب التجارب على ان القانون النظري شيء وتنفيذه شيء آخر ولعلمهم ذكروا يومئذٍ خط كلخانة الذي اصدره السلطان عبد المجيد سنة ١٨٣٩ ثم الفرمانات والعهود الصادرة بعد ذلك كفرمان ١٨٥٦ ، وفرمان ١٨٧٤ ، والمادة التاسعة من معاهدة باريس ، ودستور مدحت سنة ١٨٧٦ . وفي كلها كانت تركيا تعترف قانونياً بالتساوي بين جميع الاجناس والاديان في السلطنة . على ان ذلك التساوي لم يتم فعلياً

فلما ذهبت النشوة الدستورية الجديدة فتح العرب عيونهم فاذا هم والأتراك وجهاً لوجه ، واذا بينهم اختلاف مريب يثير الشكوك بنيات الاتحاديين - وهم حماة الدستور ومنفذو احكامه . فتملكهم التشاؤم ورأوا ان العهد الجديد لا يختلف عما سبقه ، وانه لا بدّ لهم من العمل . وكانوا في مطلع القرن العشرين وقد خطوا خطوات واسعة في سبيل الرقيّ ، وتهيأ لهم من اسباب النهضة ما لم يتهيأ من قبل ، فأخذ السياسيون منهم ينظمون الجمعيات والدعائيات توصلا الى نيل حقوقهم وصدّاً للتيار التركي من الطغيان عليهم

وغير نكير ان موقف الاتحاديين من الدستور لم يكن سهلاً . فهم الذين أعلنوه ، وهم الذين كان عليهم ان يحموه ويطبّقوه . فلم يكن غريباً ان يمحروا معظم السلطة في ايديهم وان يكون جلّ تعويلهم على العنصر التركي وبذلك فتحوا باباً لتدمير غير الاتراك . وسرعان ما احدث هذا التدمير تعكيراً في صفوف الدستوريين من ملكيين وعسكريين ، فبدت بين العناصر المختلفة ، كما راينا ، بوادر سوء الظن . ولم يكن بين الشبيبة المتحمسة من يتلافى الامر بالتالي هي احسن ، فكان ما كان من تلك المشادة العنصرية التي فرقت قلوب العرب عن الترك وحوّلت انظارهم الى العصية القومية

وطبعاً لم يكن عقلاء الطرفين راضين عن هذه الحالة التي اقلّ ما يقال فيها انها توهن قوى الدستوريين وتخرج مركزهم . فقام مفكّروهم يدعون الى التسهيل وإزالة سوء التفاهم . ومنهم الدكتور رضا توفيق<sup>(١)</sup> . فقد صرّح سنة ١٩١٠ لمحرّر جريدة ( بروجره دي سلانيك ) بقوله - (٢) « انا على اتفاق تام مع الجمعية على ان البلاد في حاجة الى حكومة قوية ، ولكنني اخالفها في استخدام القوة . واذا كان وجودي في المجلس قد قضى عليّ بان احمل على طلعت بك الممثل الاكبر للجمعية في الوزارة وصديقي ورفيقي منذ الساعة الاولى في جمعية الاتحاد والترقي فذلك لاعتقادي بان الواجب عليّ ان افعل ما فعلت . ولو سكت كفيري لكان ذلك خيانة لا يغفرها الوطن لي . ان الدستور لا يكون الا كلمة لا معنى لها اذا لم نحترم الحرية السياسية والحقوق الاساسية وحرية القول والكتابة والخطابة ، واذا لم تعامل العناصر كلها معاملة واحدة بمقتضى احكام الدستور »

ففي كلام هذا التركي الحرّ ما يشير الى سياسة الاتحاديين التي حملت العرب يومئذ على التبرم وسوء الظن

وكما كان بين مفكري الاتراك متساهلون يدعون الى الوئام كذلك كان بين مفكري العرب فقد ذكرت جريدة الاهرام ان جمهوراً من العثمانيين في مصر اجتمعوا سنة ١٩١٠ لوداع سليمان البستاني نائب بيروت . فجرى في ذلك الاجتماع من الكلام ما يشفّ عما كان بين العنصرين التركي والعربي من توتر في العلاقات . وها نحن ننقل بعضه بتصرف عن مجلة النبراس البيروتية - (٣) قال رفيق بك العظم « ان العرب

(١) هو عالم تركي كبير وكان من صميم الاتحاديين

(٢) ثورة العرب (المقطم ١٩١٦) ص ٥١ (٣) مج ٢ ص ٣٣٣

مهزومة حقوقهم ولغتهم ممتحنة مضطهدة . وهو يعزو هذا لا الى الامة التركية فهي صديقة للعرب ولكن الى بعض ذوي المناصب في الاستانة . ثم يقول متحمساً . « فالواجب ان يفهموا اننا لا نصبر على هذا الضيم لانه 'يهنا ان تحيا الدولة. إن الترك بلا العرب تزول دولتهم ، والعرب بلا الترك يؤكلون ويهضمون ، فحياة الدولة نهنا ونهمهم على حدٍ سواء »

ومن تكلموا في ذلك الاجتماع الدكتور يعقوب صرّوف فقال « ان معتقدي كان كمعتقد أخينا رفيق بك حتى قابلت اليوم العلامة البستاني ففهمت منه الحقائق ، وانا واثق انه 'لم ينقل اليّ غير الحق. فاذا كان العرب قد حرّموا الوظائف فلأنهم لم يسيروا في سلك التوظيف . وان كان قد بدر من بعض كتّاب الاتراك ما آلم العرب فذلك ليس رأي القابضين على أزمة الامور » بل ان رأيهم عكس ذلك تماماً ... الى ان يقول .. « فالواجب ان نعاونهم بالنصيحة ونحو سوء التفاهم ونساعدهم على ادماج جميع العناصر والطوائف حتى تصحّ الجامعة العثمانية » .

واخذ السيد رشيد رضا يثبت ان هناك سوء تفاهم بين العرب والترك لا يجوز انكاره ، على انه 'كان يحاول ان يحصره في فئة معينة . وبما قاله 'لا نكران ان بعض ذوي الاغراض في الاستانة هم سبب هذا الشر »

أما البستاني فكان ينزع منزع السياسي العثماني الصميم . وقد شرع يبين ان هذه المشادة مبنية على الاوهام ، وان الدولة مفتوحة للعرب كما هي للترك . وفي كلامه - « أقول لكم عن ثقة وعن يقين ان قولهم ان بين رجال الحكومة من الاتراك قوماً يكرهون العرب او يضطهدونهم وهم باطل اختلقه بعض اصحاب الاغراض والمفاسد . فالاتراك عموماً ورجال الحكومة منهم خصوصاً يحبون العرب ويحلوهم ويعتمدون عليهم في تأييد الدولة . ولا يضطدون اللغة العربية بل هم على عكس ذلك يؤيدونها »

فيؤخذ بما ورد في هذا الاجتماع الذي كان يضم نخبة من مفكري العرب ان العرب كانوا يتهمون الاتراك بهضم حقوقهم والاستبداد بالامر دونهم واضطهاد لغتهم . وقد تناول جرجي زيدان ذلك في مجلة الهلال فنشر مقالاً موضوعه العرب والترك حاول فيه الاعتذار عن الاتحاديين وحمل العرب على التؤدة وحسن الظن . وبما جاء فيه <sup>(١)</sup> - « لا ننكر استخدام جمعية التوفي نفوذها في الانتخابات حتى جعلت الاكثوية من

حزبها ، وانها تلكأت في اسناد الوظائف الكبرى الى العرب . ولكننا لا نحمل ذلك على رغبتها في الاستئثار بالسيادة دون العرب او غيرهم ، ولكن فعلت ذلك على ما نظن رغبة في سلامة الدولة ، وصيانة للدستور الذي نالته بعد شق الانفس من ان تعبت به الايدي اذ اتولاه غير اهلها « ولشدة رغبة زيدان في المسألة وعطفه على القائمين بأمر الدستور اخذ يلوم بعض مواطنيه على وقوفهم موقف العداء من اخوانهم الاتراك فيقول - « لما اعلن الدستور وجاهر الاتراك انهم يتنازلون عن جنسيتهم وامتيازاتهم رغبة في الوفاق ما كان من العرب الا السعي في تأييد الجامعة العربية . فألفوا جمعية التآخي العربي بالاسنانة وأنشأوا الصحف للدفاع عن العرب والتنديد بالاتراك والتفاخر بمجد العرب ودول العرب وعلوم العرب »

وفي كلام زيدان شيء من الحقيقة لا الحقيقة كلها ، فان الذي يراجع تاريخ هذه الحركة يرى كما بينا مراراً ان العرب لم يكونوا عند اعلان الدستور اقلّ غيرة من الاتراك على الجامعة وان تبعة الشقاق الذي نجم بعدئذٍ واقعة على الطرفين ولا سيما على الاتراك . فزيدان نفسه يصرح باستئثارهم بالمناصب ولكنه يأخذه بحسن الظن وروح التفاؤل ولا ينتظر من كل واحد ان تكون له تلك الروح فيغضي عما كاث يراه من استبداد جنسي

وقد عقد رشيد رضا في مجلة المنار مقالاً إضافياً<sup>(١)</sup> تناول فيه ما كان من سوء تفاهم بين العنصرين ففصل اسبابه وشرح كليانه وجزئياته ثم قال متحفظاً « لا اقول ان كل ما روي من ذلك صحيح المتن والسند . ولا اقول ان ما صح منها كان بسوء النية وتعمد هضم حقوق العرب . ولكنني لا استطيع ان انكر قول من يقول انها في مجموعها تفيد التواتر المعنوي الدال على انه يوجد في رجال الدولة ورجال الصحافة التركية أناس يسيئون الظن بالعرب ولا يعطونهم حقوقهم ولا يعرفون قيمة اتحادهم بالترك واتحاد الترك بهم »

وسواء كان الاتراك المومنين او كان العرب فالذي يهنا هنا ان ذلك النفور العنصري يومئذٍ حقيقة لا مرأى فيها وانه قد شغل الافكار والاقلام زمناً غير يسير ، وقد أصاب رشيد رضا اذ قال في المقال السابق الذكر « هذا ما كانت عليه البلاد في العام الماضي (١٩٠٩) . وكانت قد نجمت قرون الخلاف ولكن لم يشعر بها الجمهور فلما كثرت وكبرت تنكّر الناس في سورية ومصر وخاضت في المسألة الجرائد العربية



حتى في اميركا ، وتبارت فيها قرائع الشعراء ، وتجاوبت فيها الاصوات حتى عمت البلاد والجهات . فاهتزت بذلك النعرة العربية اهتزازاً شديداً

ومن دلائل هذا الاهتزاز انه في الجلسة التي عقدتها اللجنة المركزية لجمعية الاتحاد والترقي سنة ١٩١٠ قام عضو عربي منها هو عمر منصور باشا مبعوث طرابلس الغرب والقي خطاباً بالغاً منتهى الجرأة ، وفيه يحمل على الاتراك ويعزو اليهم سبب الخلاف الناشب بينهم وبين العرب فيقول متألماً<sup>(١)</sup> - « لماذا لا تتمعدون على حقوق الارمن والروم والبلغار العثمانيين . اتعرفون لماذا ؟ لان عند الارمن قنابل ، وللروم اليونان والبلغار بلغاريا . اما نحن فلا يشد ازرنا احد ولكن ثقوا ان لنا الله ورسوله . اذا قال لكم مبعوث عربي ان ابناء العرب ممتنون منكم فلا تثقوا بهذا القول ولا تصدقوه . اقول لكم هذا على مسمع منكم جميعاً »

ولم يكن اندفاع هذا النائب الجريء في عاصمة الاتراك ومركز قوتهم الا لما كان يراه او يسمعه من اقوال غلاتهم خطأ من كرامة العربية وابنائها . وبكفي ان نذكر من ذلك على سبيل المثال كتاب « قوم جديد » لكتاب تركي اسمه عبيد الله . فقد ذهب في الغلو كل مذهب حتى طلب من الاتراك ان ينزعوا اسماء كبار العرب من الصحابة والتابعين عن قباب المساجد ويضعوا محلها اسماء عظام الترك<sup>(٢)</sup>

ومن اقوال غلاتهم قول احدهم<sup>(٣)</sup> - « ما هي العثمانية ؟ ولماذا لا نقول التركية . ان الحقيقة تغلب الخيال ، ومن المحال العقلي ان تظل هذه الشعوب المتباينة مرتبطة بعضها ببعض وراء ستار وهمي . وتحت اسم بال خلق . يجب علينا ما دام في استطاعتنا الحياة ان نعد الى الجيش والاسطول والعلوم والآداب والشرائع والقوانين وكل شيء فنصبغه بالصبغة التركية المحضة »

وقد طلب احمد جودت محرر جريدة إقدام ان تنقح اللغة التركية من الكلمات العربية . وعلى وتره ووتر اضرابه من الغلاة كان يضرب جملة من أولي الامر ومثيري شعور الجمهور وقد تغلبت اصواتهم على أصوات المعتدلين ، وهذا ما دفع العرب الى مقابلتهم بالمثل والكيل لهم بنفس المكيال .

والظاهر ان العرب أحسوا بهذا التنكر منذ أوائل العهد الدستوري فعمدوا الى

(١) جريده البرق (بيروت) سنة ٣ عدد ١٢٢ (٢) القضية العربية (الاعظمي) ١ - ١٠١

(٣) القضية العربية ١ - ٩٥

توحيد دفاعهم بتأليف الجمعيات السياسية وهالك أهمها<sup>(١)</sup> : -

المنتدى العربي سنة ١٩٠٩ - أسس في الاستانة على ان يكون مثابة للشبان العرب في تلك العاصمة

جمعية الفتاة ( الاستانة ) - وهي للعرب بمنزلة الاتحاد والترقي للترك  
الجمعية القحطانية ١٩٠٩ ( مصر ) - جمعية سرية غايتها بث المبادئ الصحيحة بين  
ابناء الامة العربية وتوحيد صفوفها

الجامعة العربية ١٩١٠ (مصر) غايتها السعي لاتحاد حلقي بين أمراء الجزيرة العربية  
ثم التعاون على عمران البلاد والدفاع عنها وإنشاء صلة بين الجمعيات العربية في سورية  
والعراق وغيرها

حزب اللامركزية ١٩١٢ (مصر) غايته تبيان محسنات الادارة اللامركزية في  
السلطنة العثمانية

الجمعية الاصلاحية ١٩١٢ ( بيروت ) وهي اشبه بفرع من حزب اللامركزية  
وينحصر عملها في تنفيذ الاصلاح اللامركزي في ولاية بيروت

جمعية العهد ١٩١٣ (الاستانة) وهي تضم نخبة من ضباط العرب في الجيش وغايتها  
السعي للاستقلال الداخلي لبلاد العرب ، على ان تظل متحدة مع حكومة الاستانة  
اتحاد المجر مع النمسا ( قبل الحرب )

على ان اول جمعية عربية نشأت في ذلك العهد هي جمعية الاخاء العربي . تأسست  
في الاستانة سنة ١٩٠٨ . ومن غاياتها جمع كلمة الملل العثمانية المختلفة والسعي لاعلاء  
شأن الامة العربية وصيانة حقوق ابناء العرب وتأيد الحرية والعدل والمساواة بين  
عناصر الامة العثمانية وإزالة الضغائن وسوء التفاهم من بينهم « الخ الخ  
وكان التجانس مفقوداً بين اعضائها فلم تعش طويلاً .

\* ولا ننسى في هذا المقام المؤتمر العربي العام الذي عُقد في باريس (١٩١٣) وضم  
وفوداً من اكثر الاقطار والمهاجر العربية . وكانت غايته مصارحة الدولة العثمانية  
بتطبيق نظام اللامركزية في بلاد العرب مع المحافظة على الرابطة العثمانية

\*\*\*

فالجو العربي الادبي كان في ذلك العهد مشبعاً بالاماني والحركات القومية وملأماً كل الملائة لانتشار الدعايات ضد حكومة الاستانة . وقد كانت تلك الدعايات تنبعث عن مصدرين مختلفي الغرض هما - (١) الجمعيات العربية (٢) الايادي الاستعمارية . فالاولى لم تكن غايتها على ما يستدل من نظمها وتصريحات رجالها الاخدمة القضية العربية باعتبارها مسألة من مسائل السلطنة العثمانية الداخلية . وذلك ما يعنيه رشيد رضا بقوله عن النهضة العربية وتوجهها الى الاصلاح الديني والاجتماعي والمدني (١) - « وهي جديرة بذلك بدليل اتفاقها في سورية والعراق والجزيرة على بناء هذا الاصلاح على اساس اللامركزية الادارية اذ بذلك تحفظ حقوق الدولة العثمانية ويتمكن الارتباط بها ، وبه يعطى كل قطر حقه بحسب استعداده ومذاهب اهله » بل ذلك ما كان يعنيه اولو الامر في كل جمعية سياسية

اما الثانية ( الايادي الاستعمارية ) فلها غرض آخر - كانت ترمي الى تفكيك عرى الدولة العثمانية وفصل الاقطار العربية لاغراض استعمارية . ولا نشك انها سعت في تنشيط الجمعيات وحمايتها اذ رأت فيها او في بعضها ما قد يوصلها الى هدفها المنشود ولا نستطيع ان نتثبت هنا المدى الذي بلغته علاقات اوربا بالجمعيات العربية ، بل لا ندرى هل حصل قبل الحرب الكبرى تفاهم بين الاستعمار ودعاة القومية . فان هؤلاء كانوا متمسكين بصلاتهم العثمانية يتجنبون الوقوع في أحابيل الاستعمار . على اننا ندرى ان اوربا كانت تمتدّ يداً حريية الممس الى طلاب الاصلاح ، وان النفسية العربية كانت في العهد الدستوري ( ما بين ١٩٠٩ - ١٩١٤ ) ظاهرة الاضطراب بدليل ما نراه من نفثاتها الشعرية المعبرة عن خوالجها والمطالبة بتحقيق أمانها . ومن أمثلة ذلك قصيدة للشيع سليمان التاجي الفاروقي ( فلسطين ) تزيد على السبعين بيتاً يخاطب فيها السلطان ويلتمس منه النظر في حقوق العرب . وهاك بعضاً منها - :

العرب لا شقيت في عهدك العرب سيوف ملكك والاقلام والكتب  
هم الجبال فما حملتهم حملوا لكن اذا سيمتهم ضم النفوس أبوا  
ومنها مشيراً الى خيبة آمال العرب

كنا نعلل بالدستور أنفسنا بفارغ الصبر ذاك اليوم نرتقب

حتى اذا جاء لم يحدث لنا حدثاً ولا استجيب لنا في مطلبٍ طلبٍ  
وله قصيدة أخرى قبلت استفزازاً لنواب العرب . وقد نشرت في جريدة المفيد  
« بلسان الامة العربية تخاطب أبناءها » وبتوقيع بدوي فلسطين . ومطلعها  
يؤمن نواصيكم عقدت الامانيبا ورجيت ان أعلو لكم من علانيا  
ومنها : بني انهضوا واحيوا حياة عزيزة حياة تعيد المجد للعرب ثانيا  
وبعد ان يحدثنا عن أمجاد العرب يلتفت ثانية الى النواب فيقول : -  
ألا نهضة شرقية عربية تزلزل أقواماً وتوهي رواسيا  
وتقضي على كل امتياز واثرة ويصبح كل الناس فيها سواسيا  
الارجلا ذا مرة فيلكم ويرأب صدعاً فيكم بات واهيا  
يقوم فلا يرتد او يبلغ المنى ويقضي ولكن يبعث السيف قاضيا  
وللفاروقي كثير من مثل هذه النفثات القومية . على انها مبعثرة في الجرائد اليومية  
السورية والمصرية . ولم نقف له على مجموعة خاصة<sup>(١)</sup>

\* \* \*

وأشد من أقواله وأعنف نفثات عبد الحميد الرافعي (طرابلس) وقد كان قبل  
الدستور من مريدي أبي الهدى الصيادي شيخ السلطان عبد الحميد . فلما حدث الانقلاب  
وحدثت على اثره تلك المشادة العنصرية ثار ثأره على الاتحاديين ، فنظم عدة قصائد  
نارية مظهرآ فيها فسادهم ومهيبآ بالعرب الى النهوض والتقدم ومنها قصيدة مطلعها<sup>(٢)</sup>  
ما تصلح الدنيا ولا ناسها ما لم يل الاقوام أجناسها  
ومنها : دارك أمير العرب جرثومة للعرب قد ادركها ياسها  
تجاوز الترك على حقها والترك قوم ضاع إحساسها  
ومنها : هوابني العرب إلام الكرى وقد دها الآمال دهاسها  
طلبتم الإصلاح من عصبه ثوثر بالافساد اقواسها  
فكم تقيسوت على ذلّة وروضة الصبر ذوى آسها  
ألستم نسل القروم الألى تنتعل الهامات افراسها  
فجرّدوا العزم الذي طالما شقّ صدوراً طال وسواسها

(١) ما نشرناه للفاروقي أعلاه هو من بعض ما نكرم بإرساله اليينا المرحوم ابراهيم طوقان

الاديب الفلسطيني المعروف (٢) راجعها في ذكرى يوبيله ص ٨٨١

ويجري في ذلك ثم يقول مشيراً الى الدولة العثمانية وعواطف المسلمين قبلًا نحوها:—  
 كَتَا نَرَى طَاعَتَهَا عَصَرَ مَا كَانَتْ تَلِي الْأَحْكَامَ أَفْدَاسُهَا  
 أما اليوم فقد تغيرت الحال عنده وها هي تقف من العرب موقف العداء ومن  
 الدين ولغة القرآن موقف الرياء —

تَحَسَّبُ أَنْ الْعَرَبَ أَعْدَاؤُهَا وَهُمْ مَدَى الْأَيَّامِ حَرَّاسُهَا  
 عَوْنٌ عَلَى السَّلَامِ وَأَنْ حَارِبَتْ فَهُمْ مُوَاضِيهَا وَأَتْرَاسُهَا  
 تَزْعُمُ حُبَّ الدِّينِ لَكِنْ كَمَا يَرُوجُّ السِّلْعَةَ دَلَّاسُهَا  
 لَوْ تَأَلَّفَ الْقُرْآنُ مَا حَارِبَتْ لِسَانَهُ حَتَّى التَّوَى فَاثَرُهَا

وهكذا ينهي بالذع الاليم على اولى السلطة من الاتحاديين فينعتهم بالكفر  
 والتخنث والسفالة والظلم ، ويطلب من العرب الاتحاد والتضامن دفعاً لعادية هؤلاء  
 القوم المارقين الذين لشدة ظلمهم دفعوا البلاد الى هوة الحراب

مَنْ عَظُمَ مَا جَارَتْ بِأَنْحَاثِنَا أَنْحَى عَلَى الْأَمَةِ إِفْلَاسُهَا  
 مَا هَمَّهَا فِي دُورِ حُكْمِهَا إِلَّا بَأْسُ تَمَلُّأِ أَكْبَاسِهَا  
 فَلْيَتَّحِدْ فَعَلًا عَسَى هَمَّةٌ تَهْتَاجُ بِالتَّوْحِيدِ أَقْبَاسُهَا  
 وَتَنْعَشُ الْإِنْفُسُ مِنْ أَمَةٍ تَلْهَيْتُ بِالذَّلِّ أَنْفَاسُهَا

وقس على هذه القصيدة كثيراً من اقواله

وقد أشرنا سابقاً الى ما أثار الحفائظ من اقوال جريدتي طنين واقدام وما حاوله  
 بعض كتّاب الاتراك الاغرار من الوقعة بالعرب والحط من لغتهم . وكيف حرّك  
 ذلك الشعر العربي فزخرت لوجه وتلاطمت امواجه حتى كنت تراه في العراق كما تراه في  
 سوريا والمهاجر نائراً بالنخوة القومية مزبداً بالغيرة الجنسية . ومن هذا الشعر القومي  
 الثائر قصيدة ليوسف حيدر البعلبكي يذكر فيها ايجاد العرب ثم يقول مشيراً الى  
 جريدة اقدام التركية<sup>(١)</sup>

فَقُلْ لِّجَهْلٍ رَاحَ يَلْتَمُ عَرَضُهُمْ وَلَمْ يَدْرُ أَنَّ الْوَيْلَ مِنْ جَهْلِهِمْ طَرًّا  
 خَلَفْتُمْ كَانَتْ بَقَايَا فَخَارِهِمْ وَنَلْتُمْ هَدَى الْإِيمَانَ مِنْ فَضْلِهِمْ طَرًّا  
 فَلَا حَرْبَ ذِي قَارٍ صَلَّتْهَا سَيُوفُكُمْ وَلَا صَنْتُمْ عَنْ فَارَسٍ عَرَضَكُمْ قَهْرًا  
 فَدَعِ عَنْكَ يَا هَذَا مَبَارَاةَ مَعَشَرٍ إِذَا ذَكَرُوا فَالْكَوْنُ يَذْكُوبُهُمْ بَشْرًا

ومن هنا يأخذ بوصف العرب وشرف نفوسهم ونخوتهم الجاهلية ويختم ذلك بقوله :-

مناقب في صدر التواريخ أثبتت      متى نشرت فاحت بذكرهم نشرنا  
لقد أقسموا أن لا يقرّوا على أذى      وقد خاب يوماً من على الذل قد قرّا

ويصل هذا الوصف بذكر الاتراك وسوء سياستهم فيقول :-

يريدون منا ان تموت نفوسنا      ونرحب في أفعال طيشهم صدرا  
يريدون منا أن تطيش حلومنا      وان نخفض الاصوات في مجلس الشورى

ثم يلتفت الى قومه مستفزاً حماسهم :-

اليكم بني الاعراب أرفع قصتي      لأبلغ فيها من لدن قومنا عذرا  
لعلني أرى من عزمكم ما يسرني      ومن جدّكم ما تعظمون به قدرا  
عليكم سلام الله ما دام عرضكم      مصوناً لديكم لا يُباع ولا يشرى

\* \* \*

وبجاريه في هذه العصبية والدفاع عن الامة العربية عبد الحميد الرافعي فيقول في

قصيدة نظمت ردّاً على تنديد الاتحاديين باللغة العربية<sup>(١)</sup> ومطلعها :-

شَفَّ بذكر مفاخر العربان      سمعي وأنعش خاطري وحناني  
فحديث آباء الفتى يُنشي به      عزماً لنفخ الروح في الجثثانِ  
ولربّ آثارٍ لهم تذكارها      يهب الضائر قوة الايمانِ  
تتفاخر الاجيال في اخبارهم      والشمس لا تحتاج للبرهانِ  
أهل الشجاعة والبراعة والوفا      والصدق والايثار والاحسانِ  
جعلوا الممالك تحت ظلّ سيوفهم      متظللين ذوائب المراتِ

وعلى هذا النمط يستمرّ في مدح العرب وذكر مفاخرهم ، ثم يتناول لغتهم ويبين

فضلها ورفيع شأنها كقوله :-

لغة بفضل جمالها وجلالها      شهدت شواهدُ محكم الفرقانِ  
لغة اذا أدركت سحر بيانها      أدركت معنى السحر في الاجفانِ

وبعد ان يصفها في عدة ابيات يلتفت الى مناوئها فيقول :-

قل للألى جهلوا مكانتها وقد      كادوا لها في السرّ والاعلانِ

عاديتموا ما تجهلون ولم يعب قدر الورود كراهة الجعلان  
والله يأبى ان تهات فبشروا من رام ذلتها بكل هوان

اما أبنائها الذين انصرفوا عنها الى اللغات الاجنبية فيعاتبهم بقوله : --

كل اللغات لديك بالغة الهدى خدّم وأنت مليكة الايوان  
ظلموك أهلك بالجفاء فأصبحوا والكل يمشي مشية السرطان  
لم يحفظوا لك ذمة وتعلّقوا بهوى السوى ورموك بالهجران  
لكنهم غرّوا بغيرك حقبة من دهرهم والدهر ذو ألوان  
حتى اذا انكشف الغطاء وأيقظت مُقلّ الرجال حوادثُ الازمان  
نهضوا وكلّ يستعبد برّبهِ بما انتشى ويسبّ بنت الحان

ومثل ما تقدّم قصيدة لامين ناصر الدين (لبنان) نظمها سنة ١٩١٠ وفيها يقول (١) :-

أنسيت قدر العرب يا إقدامُ ولهم على هام النجوم مقامُ  
أجهلت ما نالوه من شرفٍ به يسمو الزمان وتفخر الايامُ  
لولا هم لم تجر فوق مهراقٍ يوماً بذكر مفاخرٍ أقلامُ

وبعد ان يعدد مناقبهم ومفاخرهم التاريخية يقول : -

ان أسرف الحساد تنديداً بنا فلطالما ذمّ الكرام لثامُ  
نحن الألى بنّت النبوة بيننا ذاك البناء فأزهر الاسلامُ  
نحن الألى بلسانهم قد أنزلت آي الكتاب وذلك الالهامُ

ثم يلتفت الى الجريمة التركية مؤنباً ومعاتباً : -

أرسلت يا إقدام سهم وقبة لكن أعيد اليك وهو سهامُ  
أكذا يقوم بخدمة الاوطان ذو قلمٍ ويطلب الرقي همامُ  
أيظنّ أنا نرتقي الا اذا ضمّ العناصر ألفة ووثامُ

\*\*\*

ويظهر هذا التفاخر الجنسي في قصيدة « ألواح الحقائق » لمحمد حبيب العبيدي

الموصلي سنة ١٩١٣ وفيها يقول (٢) : -

(١) ديوان صدى الخاطر (١٩١٣) ٩٣

(٢) راجعها في الادب العربي في العراق (لطي) ١ - ١٥٢ وقد مر ذكرها في فصل سابق

يا بني الضاد إن للضاد حقاً      ناطحت دون حقه الآباء  
 ان رضينا غير الكرامة ورداً      غصّ منا بشاربيه الماء  
 لبت شعري ما ينقم القوم منا      أم على ابصارٍ هناك غشاء  
 يشهد الله ان أول بيت      للعلیٰ فینا شاده البناء  
 خيرة الله نحن في الخلق تما      ولدت من أنسأها حواء  
 نحن شيء وغيرنا بعض شيء      نحن نورٌ وغيرنا الظلماء  
 انما ينكر الحقيقة غرٌّ      أو لئيمٌ أو حاسدٌ مستاء  
 نحن في الحی مهبط الوحي قدماً      والینا المصیر والانتها

ولو أردنا ان نذكر كل ما قيل في هذا الباب لضاقت به الصفحات الكثيرة . فقد كانت الاقطار العربية جميعاً تلهج به ، بل قد ردّد صداه الناطقون بالضاد في كل صقع من اصقاع المعمور . فمن الهند يبعث عبد الحق الاعظمي البغدادي سنة ١٩١٣ رسالة الى المنار يقول فيها<sup>(١)</sup> « ان لديه علاجاً لاصلاح حال المسلمين واصلاح البشر اجمعين . وهو وصفة مؤلفة من جزئين اولهما تعميم اللغة العربية في العالم الاسلامي كله وجعلها لغة التكلم والتعلم والتعامل دون سواها » . واما الجزء الثاني فهو تعزيز العنصر العربي « الذي اعزّ الله به الاسلام ورفع مقامه فوق كل مقام » . . قال - « فاذا غلب الاجانب العرب على امرهم وانشبوا برائثهم في احشاء بلادهم فلا عاصم للامة بعد ذلك من امر الله ولا ملجأ ولا منجاة لها من نوائب الدهر وغوائله » . الى ان يقول . . . « نعم ان العنصر العربي جار عليه الظالمون ونهك قواه العادون ومزّق وحدته المارقون . لكنه مع كل ذلك لا يزال أصلح العناصر الاسلامية للقيام بامر الاسلام واعادة مجد الانام »

وهو يدعو المسلمين الى تهئية اسباب الوثوب للعرب لينهضوا ويتحدوا ويقودوا المسلمين اجمعين كما قادهم أسلافهم الاولون . فان البذل لمساعدة العرب على احياء مجدهم هو عين البذل لاعادة مجد الاسلام الذي ما تأسس بناؤه من قبل الا بابيدي العرب ونفوس العرب وأرواح العرب وقلوب العرب ،

ومن المهاجر الامبروكية المسيحية تسمع ما لا يقلّ عن ذلك حماسة في الدفاع عن



العرب وأجادهم . يقول رشيد أيوب ( الولايات المتحدة ) من قصيدة يعارض فيها القصيدة الناقية التركية<sup>(١)</sup>

فنحن بنو الاعراب كنا ولم نزل بما خصنا المولى نفوق الاجانبا  
وبعد ان يذكر فضل النبي والصحابه وقواد الفتوح الاولى يقول مفاخرأ  
السنا الألى سادوا العباد ودوخوا البلاد وأبدوا في الحروب عجائبا  
وقصّر عن ادراكهم كلّ لاحقٍ غداة امتطوا ظهر العلى والمناكبا  
فكم دولة سدنّا وسدنّا بهمةٍ احدّ من البيض الرقاق مضارباً  
وتتعاظم حميته القومية حتى تبلغ به الى قوله -

كذاك بنينا للعلوم معاهداً وشدنّا لاهل الارض فيها مكاتباً  
فما روت الايام من عهد آدم الى اليوم عن شعب يفوق الاعاربا  
فيا وطني لا زلت اول بقعةٍ من الارض أبدت للبرايا عجائبا  
طويت من الآثار ما لو نشرته لضاقت به الدنيا حجى ومواهباً

واذا انتقلنا الى أميركا الجنوبية نرى النخوة العصبية في مهاجرها أبرز وأشدّ اتقاداً . ولا نبعد عن الحقيقة اذا قلنا ان التحمس الجنسي هو صفة أكثر أدبائها . ولولا ضيق المقام لاثبتنا أمثلة عديدة من نفثاتهم ، على أننا نجتزئ بنماذج لبعضهم - فمن ذلك قول « أبي الفضل الوليد »<sup>(٢)</sup>

ولما رأيت الناس يبنون مجدهم بكبت على آثارنا العربية  
نما زهرهم في روضهم متجدداً وقد يبست أزهارنا بعد نضرة  
لئن كان في الحرية الحلوة الردى فيا حبذا موتى لتحرير أمتي  
بني أمّ هل من نهضة عربية لصيحاتها يهتز ركن البرية

وقوله من قصيدة مذكراً العرب بماضي أجادهم<sup>(٣)</sup>

سلام على العرب الخالدين سلام العلى وسلام الكرم  
واني لأقرأ تاريخهم وقد كتبوه بحبرٍ ودمٍ  
فبين السطور ضياء الهدى وبين الجفون دموع الندم

(١) ديوانه الابويات (١٩١٢) ٣٧ (٢) ديوانه اغاريد في عواصف (الطبعة الرابعة) ١٥

(٣) ديوانه الانفاس الملتهمية (الطبعة الثانية) ١٠٢ ولهذا الشاعر دواوين أخرى وكلها تلهب

بني أم هل من نهوض لنا وهل من هيام بتلك الشيم  
 وهل من رجوع الى عزنا فبين عظام العظام عظم  
 لقد فقد العرب اخلاقهم فسادت زماناً جموع العجم  
 فقل يا اخي العربي اذا مشيت معي قدماً لقدّم  
 أحب بلادي واصبو الى رمال القفار وثلج القمم

وللشاعر القروي قصائد رائعة في هذا الباب ولاسيما في « اعاصيره » وسنعود اليها بعد . وكذلك سنذكر من آثار زملائه الجنوبيين ما يرسم لنا رسماً جلياً روح الأدب القومي في تلك الاصقاع

\*\*\*

ومن الانصاف ان نقول ان الشعر العربي القومي لم يكن كله في ذلك العهد دفاعاً عن محارم العرب ورداً لسهام أعدائهم في الدولة. بل منه ما نشأ عن طبيعة الحال فكانت غايته اصلاحية لا سياسية - الاعتبار بالماضي والحاضر ، وتوجيه النظر الى أسباب الرقي الصحيح كقصيدة انشدت سنة ١٩١٠ في إحدى حفلات ومطلعها<sup>(١)</sup> -  
 كفّوا البكاء على الطلول الهمد ليس القضاء على البلاد بمعدي

وهي ترمي الى إيقاظ العرب للجري في سبيل التقدم الاجتماعي والقومي فتحضهم أولاً على توحيد الكلمة تحت راية اللغة : -

- أبني العراق ومصر إنا أمة قعدت بها الايام أسوأ مقعد  
 إن فرق الايمان بين جموعنا فلساننا العربي خير موحد  
 قربت به الافطار وهي بعيدة وتوحدت من بعد فت في البد

ومن هنا تجري القصيدة في وصف هذا التقارب الادبي ثم تتطرق الى النظر في الدين وانه اختبار شخصي لا علاقة له بالجامعة القومية المنشودة

دعني وشأني والذي أنا عابد وكما يشا ايمان قلبك فاعبد  
 إني أخوك وان يكن ايماننا في البعد ما بين الثرى والفرقد  
 ومنها مخاطبة للطائفة الكبرى في البلاد

قد كنتم اهل البلاد واننا كنا كذلك في الزمان الأبعد

كنتم وكنا والبلاد بلادكم وبلادنا فعلام لم نتوحد  
والإمّ يقتلنا التعصب عن عمى وبيته فينا الجهل تبه السيد  
واذا كان لا بدّ لرقى الشرق العربي من اتحاد لغوي لا ديني فانما يتوصل الى ذلك  
بتوقية الشعور القومي وتربية النشء على محبة بلادهم وتكريم رابطتهم الوطنية  
ربوا البنين على احترام بلادهم فهم المرجى للحوادث في الغد  
قولوا لهم إن البلاد جميلة شهدت لها الاعداء أم لم تشهد  
حاتم نصر في عيون نفوسنا والامّ نسعى كالسوءام الشرّد

اذا فعلنا فيه والا فباطل دستورنا وباطلة مساعينا نحو العلى  
ان تفعلوا فلقد يتم صلاحنا أو لا فما دستورنا بالمسعد  
المجد للفعال في هذا الورى والارض ملك الفارس المستأسد

ومثلها قصيدة للرصافي نظمها في الاستانة سنة ١٩١٠ وموضوعها « الى الامة  
العربية ». سداها ولحمتها اسف على مجد العرب الغابر وحض لهم على نفى الخمول  
والجري في سنن الحضارة والتقدم . والشاعر فيها وان يكن كما قال « الى اليأس  
احياناً أكاد أميل » ، لا يتألك ان يجتمها متحمساً<sup>(١)</sup> : -

أستم من القوم الألى كان علمهم له كلّ جهل في الانام قتيل  
له همه ليس الطباة تفلها وان كان منها في الطباة فلول  
ألا نهضة علمية عربية فتتنش ارواح لنا وعقول  
ويشجع رعديد ويعتز صاغر وينشط للسعي الخيث كسول

\*\*\*

ولو دققنا النظر في روح الشعر العربي في العهد الدستوري لوجدنا انه مع شدة  
تحمسه للعصبة العربية، ومفاخرته بأجداد العرب الاقدمين كان لا يزال عطوفاً على الجامعة  
العثمانية ، نفوراً من صلف المستعمرين الاوربيين واطماعهم . يدلّك على ذلك انه كان  
في اول الامر ينصر الحطة اللامركزية التي كان ينشدها الاصلاحيون اعتقاداً منه انها  
تومي الى تعزيز العرب ضمن السلطنة العثمانية . فلما اشيع بواسطة الدعايات التركية ان  
للحركة الاصلاحية ولاسيما للمؤتمر العربي في باريس علاقة بالاستعمار، وانها لذلك صدع

للجامعة العثمانية<sup>(١)</sup>، رأينا الشعر يقف موقف المرتاب . بل رأينا بعض المتحمسين يتراجعون على الاعقاب — كمعروف الرصافي فانه نظم بضع قصائد في ذلك . ومنها قصيدة موضوعها « ما هكذا » يحمل فيها على الاصلاحين فيقول<sup>(٢)</sup> : —

أصبحت أوسعهم لوماً وتثريباً      لما امتطوا غارب الافراط مركوباً  
راموا الصلاح وقد جاءوا بلائحة      خرقاء تترك شمل الشعب مشعوباً  
لو كان في غير باريز تألبهم      ما كنت أحسبهم قوماً مناكباً

فاجتماعهم في باريس كان عنده مدعاة الى الاستعمار او توطئة له . وهو لذلك يتطير منه فيقول : —

هل يأمن القوم ان يحتل ساحتهم      جيش يدك من الشام الهازيبا  
يا أيها القوم لا يغركم نفر      ضجوا بباريز افساداً وتشغيبا  
فسوف يقرع كل سنه ندماً      ويسبل الدمع في الحدين مسكوباً

ولم يسكت الاصلاحيون عن حملات الرصافي فردوا عليه ردّاً عنيفاً وأجابهم بالمثل . بل بلغ به الحال ان نظم فيهم قصيدته « ليلة نابغية » فملأها بما يجب ان يتنزه الشعر عنه من هجو وتشنيع<sup>(٣)</sup>

\*\*\*

وقد اتهم الرصافي يومئذ بمشايعة الاتراك ترفلاً ، او انه قد اخذ بالدعايات التركية فكان في حكمه متسرعاً . والذي يلوح لنا ان هذا الشاعر العربي لم يكن الوحيد في حذره من الحركة الاصلاحية وغيrote على الجامعة العثمانية . فقد ظهر في انحاء مختلفة من البلاد العربية ما يشير الى حذر المخلصين وخشيتهم من امتداد ايدي الاستعمار وتصديق جامعة الوطنية العثمانية

ومن ذلك هذه القصيدة التي أنشدت في بيروت ١٩١٣ وموضوعها « حديث خطير » وهاك بعض ابياتها<sup>(٤)</sup>

(١) راجع وصف هذه الدعايات في المنار ١٦ ص ٦٣٤ و ٦٣٥ (٢) ديوانه ٣٨٩

(٣) ديوانه ٣٨٥ (٤) المورد الصافي مج ٤ ص ٣١٦

حلكت السياسة حولنا متكاثف      تقذى العيون به فليس بصير  
في المشرق الادنى لظى متطايرو      وسعير نار بالوبال نذير  
علقت بأطراف الشأم شرارة      منه فجاشت أنفـس وصدور

وبعد وصف الحالة السياسية عموماً وحال البلاد السورية خصوصاً يقول الشاعر  
للاصلاحين

أحسبتم الاصلاح أمراً هيناً      يكفيكم منه لحاً وقشور  
فصراخكم عبثٌ اذن وضجيجكم      ووعود اوربا لكم تغير  
ما مثل عاصمة العواصم ملجأ      كلا وخير الاجمر البوسفور

وكانه يُعْتذر عن هذه الحركة ويحاول تفسير أسبابها فيقول : -

عرش الخلافة ما البلاد بثورةٍ      مها علا فوق الطروس صرير  
ما زال يجمع إهلها تحت المهلال      بظلك التوحيد والتكبير

وانما السبب الحقيقي في طلب الاصلاح ان الدستور لم يطبق كما يجب وان الحكام  
لا يحكمون طبقاً للارادة السنية . فكانت النتيجة تشويش الاحكام وفقد الامن  
واضطراب الاحوال الاجتماعية والاقتصادية : -

إن يشتكوا ألدماً فليس لنقمةٍ      في النفس حرّ كما هوئى وغرور  
او يرفعوا صوتاً فسلّ حكاهم      هل يحكمون كما قضى الدستور

\*\*\*

ومثل ذلك قصيدة لشبلي المّلاط انشدها سنة ١٩١٣ بمصر في حفلة تكريم خليل  
مطران . وفيها يذكر حرب البلقان وما طرأ على الدولة العثمانية من طوارئ . ثم  
يشير الى ما كان قد أشيع عن شماتة بعض العناصر العثمانية باضطراب الدولة وضعفها  
فيقول دفعاً لتلك الشوائع وتبييناً لموقفهم من العرش العثماني : -

أخطا الألى نسبوا لبعض عناصرٍ      منها شعور شماتةٍ وتحامي  
فلنحن نعلم ان عرش محمدٍ      خير لنا من سائر الاحكام  
بل نحن نفهم انه بَرٌّ بنا      من كل محتكم من الآنام

والشاهد في هذه الابيات وما تقدمها ان الشعر كان لا يزال يرى في العرش العثماني موثلاً للشرقيين وان الاصلاح لا يعني الانفصال عنه والالتجاء الى امم الغرب . على ان ذلك لم يقف دون انتشار الدعوة للقومية العربية والمطالبة بحقوقها في السلطنة . وقد أعلنت الحرب الكبرى سنة ١٩١٤ وتلك هي العواطف السائدة في البلدان العربية . وقد علمنا في فصل سابق كيف زُجّت تركيا في أوارها وكيف عمّ الاقطار السورية والعراقية الارهاب العسكري فصمت فيها كل لسان حر وخبّت كل نزعة قومية



# ثورة العرب

ساعبرهم لنأسس ملك عربي



حدث في اثناء الحرب الكبرى حادثان كبيران كان لهما اثر عميق في نفسية العرب وبالتالي في شعرهم ، هما اعدام الشهداء ، والثورة الحجازية . ولسنا في مقام البحث عن الاسباب التي أدت الى كليهما وانما نحن نؤرخ الواقع وأثره في ادبنا العربي الحديث ومن المعلوم ان الدولة العثمانية لم تكن قبل الحرب عمياء عن الحركات القومية العربية فأخذت تبث عيونها في كل ناحية لتلم بكل شيء من امرها . ولم تكن في اول الامر تظهر القسوة والشدة كما يستدل من مفاوضاتها لزعماء الحركة الاصلاحية الذين اجتمعوا في باريس برئاسة عبد الحميد الزهراوي<sup>(١)</sup> . على انها كظمت ما في نفسها خوفاً من تدخل الاجانب وجعلت تتحين الفرص السانحة

فلما اشتعلت نيران الحرب العامة والغيث الامتيازات الاجنبية اسرعت الدولة الى تفتيش القنصليات المعادية فوقع في يديها بعض الوثائق السرية وبها تمكنت ان تكشف كثيراً من اسرار الجمعيات العربية<sup>(٢)</sup> . حينئذ شرحت عن ساعد الجد فقبضت على جماعة من الزعماء ، وتمكن بعضهم من الفرار الى اوربا ومصر

وأحيلت الاوراق الى الديوان الحربي فحكم على نخبة من اعيان الوطنيين بالموت شنقاً . وقد نفذ الحكم في ٦ ايار (مايو) سنة ١٩١٥ في دمشق وبيروت . وحكم بالاعدام غيابياً على نحو ستين من الوجهاء ، فضلاً عن عوقبوا بالنفي او بالسجن<sup>(٣)</sup>

(١) راجع صورة الاتفاق بين الطرفين في المنار ١٦ - ٣٣٩ (٢) راجع تفصيل ذلك في كتاب الثورة العربية لامين سعيد ١ - ٩٦ (٣) راجع اسماء الشهداء والمحكوم عليهم غيابياً في كتاب ايضاحات الذي اصدره جمال باشا وكتاب الثورة العربية الجزء الاول

ومن الصعب الآن ان يصف كاتب ما خالج قلوب السكان يومئذٍ من الملع والنقمة .  
وها نحن نعيد ذكرى تلك الايام المؤلمة فيعود الى نفوسنا ما كنا نشعر به من الضغط  
والرهبة - شعور مخيف كان يجيم على البلاد حتى لم يكن احد يجسر على التكلم او  
البحث في الشؤون السياسية او اظهار الاسف على شهداء العربية  
على ان ذلك الضغط التركي الرهيب لم يخلُ من فائدة اجتماعية فقد كان من اسباب  
التقارب بين الطوائف ، وذلك لارتباطهم بشعور عام انهم عنصر مظلوم . وأثر ذلك  
بين في الشعر العربي لذلك العهد

والى ذلك الضغط وذلك الشعور الاليم بالظلم يرجع السبب في توسيع شقة الخلاف  
بين العنصرين التركي والعربي ، وبالتالي الى تسهيل مهمة الحلفاء في سوريا والعراق ، ثم  
الترحيب بهم يوم تمكنوا من الفوز على تركيا وفصل الافطار العربية عنها . ومما  
يعكس لنا هذه الحال قصيدة لرضا الشبيبي نظمها على اثر طرد الاتراك من العراق  
وهي تحمل لنا أسفه بل اسف العثمانيين في العراق لسوء السياسة التركية التي أدت  
الى التفرقة بين عنصري الدولة الكبيرين . وفيها يقول (١) :

يا من يعزّ علينا ان نؤتّبهم في حيث لا ينفع التأنيب والعدالُ  
جفوتونا وقتلتم نحن ساستكم منى مطيتها الاخفاق والفشلُ  
تأبى الحوادث الا ان نملككم ولا ودين التأخي ما بنا مللُ  
أما صفحنا عن الماضي لأعينكم أما أدبلكم أيامنا الاولُ  
ومنها مشيراً الى حكومة الاتحاديين وسوء إدارتهم : -

قبضتم لحفاظ الملك طائفة لغيرها الملك والاجناد والدول  
قوم من العرب وخز النحل حظهم وحظ قوم سوانا الاربي والعسل  
عند المغانم تنسوننا ويفدحنا من المغارم تقلّ ليس يحتمل  
أين الرهين بأموالٍ لنا ذهبت ومن يقيدُ باخوانٍ لنا قتلوا  
إما شهيدٌ معلّى فوق شاهقة او موثق بحبال الاسر معتقل

فالشاعر هنا يعيد ذكريات الحرب وما قبلها ويعزو الى الاتحاديين ما أصاب البلاد  
من شقاء وما نجم من خلاف أدى الى إيهان قواها ووقوعها في يد الاعداء

\*\*\*



ومن البديهي ان الشعر العربي في الافطار العثمانية لم يستطع اثناء الحرب ان يبكي الشهداء كما كان يود . فلما وضعت الحرب اوزارها وخرجت سوريا والعراق والحجاز من المنطقة العثمانية عاد الشعراء الى ذكريات شهدائهم وصاروا يعددون مآثرهم . وقد رفعهم الشعر الى مصاف الابطال فافتن في تمجيدهم وتقديس اهدافهم ، كما فعل الزهاوي في قصيدته « النائحة » وهي تقارب المائة والستين بيتاً . ولا نخطئ اذا سميناهم « معلقة الشهداء » . ففيها يصف المشانق وقبور القتلى وأهلهم ، ويذكر أسماء الشهداء واحداً واحداً باكياً شابهم طالباً الثأر لهم . ثم يذكر ما أصاب الناس من نفي وتشيت . ويعقب بذكر الثورة ودخول العرب دمشق ثم يجتمعها بدم جمال باشا ، والتفاؤل بعهد زاهر ينسي العرب ماضي آلامهم : واليك بعض أبياتها<sup>(١)</sup> : -

على كلّ عود صاحبٌ و خليلٌ      وفي كل بيتٍ رنةٌ وعويلٌ  
علاها وما غير الحميّة سلّمٌ      « شابٌ تسامى للعلی و كهولٌ »  
لقد ركبوا كور المطايا بحثمهم      الى الموت من وادي الحياة رحيلٌ  
رجالٌ عليهم من سنا الفضل رونقٌ      وللمجد فيهم غرةٌ وحجولٌ  
مشوا في سبيل المجد يحدوهم الردى      وللحق بين الصالحين سبيلٌ

\*\*\*

قبورٌ ببيروت وأخرى بجلّقي      تُجرّ عليها للرياح ذبولٌ  
سرتٌ روحهم تطوي السماء لربها      وما غير ضوء الفرقدين دليلٌ  
وبعد ان يذكر الشهداء ويعدد أسماءهم وصفاتهم يقول : -

بني يعرب لا تأمنوا الترك بعدها      بني يعرب ان الذئاب تصولٌ  
ولن تسكن الايام عن عصبة جنوا      ولكن بما كالوا هم سنكيلٌ  
وقد سلبوا حرية الناس مذعتوا      وتلك مرادٌ للحياة وُسولٌ  
وصبّوا دماءً من شعوب بريئةٍ      فاخضل وهدات بها وتلولٌ  
ومنها مخاطباً جمال باشا : -

جمالٌ لأنّ القبح سمّوك ضده      وثوبك اذ أرفلت فيه ذليلٌ  
تريد لمجد العرب فيما أتيتهُ      زوالاً ومجد العرب ليس يزولٌ  
رويدك لا تغترّ بالدهر ان صفا      ولا تأمن الايام فهي تدولٌ

وراءك لا تقرب رواسي يعربٍ ف قرب رواسيها عليك وبيلُ

\*\*\*

ولخير الدين الزركلي قصيدة نظمت ( كما جاء في ديوانه ) « على اثر اعدام الترك  
فريقاً من شبان العرب بسورية وقيام الثورة بالحجاز » ومنها في الشهداء<sup>(١)</sup> : -  
نعم نادب العرب شبانها فجدد بالنعي أحزانها  
بكى كل ذي عزّة تربه فهاج نزاراً وعدنانها  
فمن للمدامع ان لا تفيض وترسل كالسيل هتانها  
فجائع من حديث القلوب وهيمات تسطيع سلوانها  
ومنها : فأبكي على غرر المسلمين أباة المذلة قرآنها  
وابكى على آل عيسى المسيح شمّ العرانيين صلبانها  
نعت لغة العرب من احكموا لسان قريش وتبيانها  
وناحت على من بنوا عزّها واعلوا بما اتلوا شأنها  
وهناك قصائد لغير هذين الشاعرين فلتراجع في مظانها<sup>(٢)</sup>

\*\*\*

وكما نسمع بكاء الابطال في الوطن نسمعه في المهاجر . فان المهاجرين لم يكونوا  
يوماً اقلّ حماسة من اخوانهم المقيمين . والذي يقرأ دواوين ابي الفضل الوليد، والشاعر  
القروي ، وفرحات ، والجرّ ، وصوايا وسوام يرى من انتقاد العروبة ما قد لا يراه  
في البلاد العربية نفسها . والبك انودجاً من شعر المهجر في الشهداء وهو من قصيدة  
موضوعها « ليحيى العرب »<sup>(٣)</sup>

بلاد الشام غادرك الكرام فعيش الحرّ فيك اذن حرام  
لقد كثرت من العرب الضحايا ولم يهتزّ في الغمد الحسام  
ومنها مشيراً الى السفاكين حاضاً العرب على الثورة -  
وحتّام الخافة من علوج لهم ذمّ وليس لهم ذمام  
يرون محبة الاوطان جرماً به تهوي من الاحرار هأم

(١) ديوانه ( ١٩٢٥ ) ٦٥ (٢) راجع منها « جزاء سوريا » لامين ناصر الدين في ديوانه

الالهام ٥٧ (٣) ديوان الانقاس الملتبة (للوليد) ٧٢

لقد قتلوا العواطف والمزايا ففي احشائنا منها سهامُ  
 أنبقى ساكتين بلا حراكٍ وللثورات حولنا اضطرامُ  
 ثم يخاطب الشهداء ويصف شجاعته لى الموت

أيا صحي الكرام ألا فداكم لثامٌ بعد ما قلّ الكرامُ  
 مشيتم باسليّن الى المنايا وكان لكم على النطع ابتسامُ  
 ليحيّ العرب قد صحتم وتم فصيحتم لحظنكم دوامُ  
 فنعن لى بسالتكم حيارى وأنتم فوق ذلنا عظامُ  
 على أعواد مرقية رُفعت منارات بها يهدى الانامُ  
 وكنتم قدوة للشعب مثلى فهل يُرجى له يوماً قيامُ

ويتقدّم من هنا الى مخاطبة ارواحهم ثم يختم قوله بالحكمة التالية -

وربّ ضحيةٍ أحيّت شعوبا فكان لها انعتاق واقتحامُ  
 على البلوى اذن صبر جميل لنا آماننا ولك السلام

ولوليد على هذا النسق عدّة قصائد عربية الروح كصدى الاجيال ، والصرخة  
 الكبرى والدولة العربية وسواها . ومثل ذلك للشاعر القروي . ومن اقواله في  
 الشهداء قصيدة مطلعها<sup>(١)</sup>

خير المطامع تسليم على الشهداء ازكى الصلاة على ارواحهم ابدًا  
 فلننحن الهام اجلالاً وتكرمة لكلّ حر عن الاوطان مات فدى  
 يا انجم الوطن الزهر التي سطعت في جو لبنان للشعب الضليل هدى  
 قد علقتم يد الجاني ملطخة فقدست بكم الاعواد والمسدا  
 بل علقوكم بصدر الافق اوسمة منها الثريا تلمى صدرها حسدا  
 أكرم بحبل غذا للحرب رابطة وعقدة وحدت للعرب معتقدا

والقصيدة كلها - كما كثر شعر القروي - غيرة وطنية متقدمة ، واذكاءً لنار الحمية  
 القومية في صدور الشيبة العربية . وقد اتخذ الوطنيون في سوريا ولبنان يوم ٦ ايار (مايو)  
 عيداً تذكارياً عاماً . ففي بيروت كما في دمشق يقيمون كل عام مهرجاناً حافلاً يلقون  
 فيه الخطب والقصائد ذاكرين اولئك الوطنيين الذين ضحي بهم على مذبح السياسة

والقومية ولو جمع كل ما قيل فيهم منذ انتهاء الحرب الكبرى الى الآن للأجل مجلداً ضخماً . فلنقف هنا عند حد الاشارة اليها

\*\*\*

اما الثورة الحجازية ( او العربية ) فقد اعلنت في مكة في ٢ حزيران سنة ١٩١٦ . والذي يطالع ما نشر من الكتب والرسائل عنها ( عربي وغير عربي ) يصل الى النتائج التالية -

١ - ان الشعور العربي القومي الذي شهدناه يتأجج عقب اعلان الدستور حتى توصل الى المطالبة باللامركزية خبا في اول الحرب . ولكنه لم يلبث ان تحول الى كراهية للترك ورغبة في التخلص منهم لضغط الاتحاديين في اثناء الحرب

٢ - ان العلاقة بين الاستانة ومكة كانت على شيء من التوتر وقد زادها توتراً اتصال شريف مكة بالجمعيات العربية

٣ - ان الحلفاء وأخصهم بريطانيا تمكنوا من اجتذاب الشريف حسين بن علي اليهم بوعود خلافة منها انهم يساعدونه على استقلال العرب وتأسيس مملكة عربية

٤ - وبناء على هذه الوعود اعلن الحسين الثورة على الاتحاديين فاشترك العرب فعلاً في الحرب الكبرى

وقد كان لهذه الثورة في البلدان العربية ( ما عدا مصر ) نتائج معنوية خطيرة اهمها انها اذكت في نفوس الناس العصبية الجنسية ، ووضعت في ايديهم سلاحاً فعالاً للمطالبة باعادة مجدهم التليد

فاصبح الملك حسين في الادب العربي ( في سوريا والعراق ) بطل العرب والمطالب الاكبر بحقوقهم . وانا نلفت النظر هنا الى منشور الثورة<sup>(١)</sup> الذي اذاعه باسطاً فيه الاسباب التي حفزته الى مقاتلة الاتحاديين ومنها اضطهادهم للغة العربية ، وقتلهم لكثيرين من نوابغ النهضة القومية وما قاموا به في البلاد العربية من نفي أسر وافراد ومصادرة اموال ومتاجر ، وغير ذلك من الاعمال المنكرة

وقد اشترك في هذه الثورة عدد غير قليل من السوريين والعراقيين ، وبينهم نخبة من ضباط الجيش التركي سابقاً . ولا بدع فقد اعلن الشريف « انها عربية تشمل كل عربي

(١) راجع المنشور في الثورة العربية ( امين سعيد ) ١ - ١٢٩ وفي كتاب الوثائق والمعاهدات

كائناً من كان على شرط ان يكون صادقاً لوطنه مخلصاً لقومه»<sup>(١)</sup>

ولا شك ان الاتراك بذلوا جهدهم لاجل اتحاد الثورة . وقد استطاعوا في اثناء الحرب ان يكتموا افواه الناس في سوريا والعراق عن نشر اخبارها . بل ان يحملهم على التشنيع بها . على انها كانت في الحجاز قوة فعالة ، وكان للادب نصيب كبير فيها . ومن رافقوا الثورة وتغنّوا بها فؤاد الخطيب فقد اوحى اليه بكثير من الشعر الحماسي . كقوله من قصيدة حبّى بها استقلال العرب ونهضة الحسين ومطلعها<sup>(٢)</sup>

حيّ الشريف وحيّ البيت والحرماء وانض فمثلك يرعى العهد والذمما  
يا صاحب الهمة الشماء انت لها ان كان غيرك يرضى الأبن والسقمما  
ومنها مخاطباً الاتحاديين -

يا آل جنكيز ان تثقل مظالمكم على الشعوب فقد كانت لهم نعمة  
فالظلم ايقظ منهم كل ذي سنة ما كان ينهض لولا انه ظللما  
ومنها مشيراً الى اشتعال الثورة في الحجاز -

فمن يكن عن أناة الضيم في صمم فليسع اليوم صوتاً يحسم الصما  
فقد تكلم صوت النار مرتفعاً من الحجاز فشقّ اليد والأكما  
يا ابن النبي وانت اليوم ناصره قد عاد متصلاً ما كان منفصما  
والتف حولك أبطال غطارقة شمّ الانوف يرون الموت مفتما  
فاصدم بهم حدثان الدهر معترضاً صدّآ من الترك ان تعرض له انهدما  
ثم يلتفت الى العرب مستفزاً حميتهم ومذكراً اباهم بالجد الغابر

إيه بني العرب الاحرار ان لكم فجراً أطلّ على الاكوان مبتسما  
من ذلك البيت ، من تلك البطاح ، على تلك الطريق مشّت أجدادكم قدما  
من كل أروع وكتاب اذا انتسبت بيض الصوارم كان الصارم الخدما  
لستم بنبيهم ولستم من سلالتهم ان لم يكن سعيكم من سعيهم امما  
الى الشام ، الى أرض العراق ، الى أقصى الجزيرة سيرا واحملوا العلمما

ومثل الخطيب خير الدين الزركلي . ومن نفثاته في هذا الباب قوله سنة ١٩١٨  
من قصيدة عنوانها العرب والترك يصف فيها فظائع الاتراك<sup>(٣)</sup> -

(١) كتاب ثورة العرب (المقطم ١٩١٦) ٢٣١ (٢) كتاب ثورة العرب (المقطم ١٩١٦) ٢٤٤

(٣) ديوانه ٨٣

عنا أحفاد جنكيز فساقوا سلائل يعرب سوق العبيد  
فكم قتلوا من الاخيار صيداً وكم ساموا المهانة من عميد  
وكم حملوا على الاعواد ظمأً وكم سقوا المنية من شهيد  
ثم يشير الى الثورة فيقول : -

الى أمّ القرى عدت المذاكي وفي أمّ القرى خفق البنود  
بروق في الحجاز ومضن وهنا فكان بجلق قصف الرعود  
ويقول من قصيدته « الشهداء » وقدم ذكرها : -

أبى السيف الا انتقاماً لها وخاف على الضيم خسرانها  
أثار بني هاشم في الحجاز وأنطق في التوب حسانها  
كتاب هبت تلبي الدعاء وتطوي القفار وكتبانها  
برمح يرت وعضب يئن يئنه في الترك وسانها  
هو الثار أدركه الثائرون اشجي فروقاً وسلطانها

وقصائد هذين الشاعرين نموذج لما نظم في الثورة والقائمين بها . ومن الذين اسادوا  
بالثورة العربية عبد المحسن الكاظمي وديوانه ينضح بروح العروبة وذكرى اجماعها  
التليدة<sup>(١)</sup>

وما نراه في الوطن نراه في المهجر فقد حركت الثورة هناك الشعر العربي فتبارى  
زعماءه في وصفها وتعيد حسناتها ، وتمجيد من اوقدوها . كقول رشيد ايوب<sup>(٢)</sup> -

من اقاصي الروم نهدبك السلام مع نسيم السحر  
يا شريفاً كلما ناح الحمام فوق غصن الشجر

صاحب السيف الصقيل المستهاب في دياجي المحن  
انت من قوم لهم تغنو الرقاب من قديم الزمن

خضتها حرباً على الباغي تدور بكما أسد  
وتركت الترك اصحاب الفجور عبوة لابيد

فأدر يا أيها الساقى الكؤوس جاء وقت الطرب  
واسقنا من خمرة تجلو النفوس من ظلام الكرب

واصغ للبلبل ان لاح الصباح صاح فوق القضب  
فلتتش للعزّ في تلك البطاح دولة للعرب

وهذا الشاعر من مهاجري السوريين في الولايات المتحدة وهم عموماً أقل تأثراً بالحركة العربية من مهاجري أميركا الجنوبية كما يشهد بذلك شعرهم المنشور في الدواوين والصحف وقد أئمنّا وسنلم أيضاً بشيء من اقوال هؤلاء « الجنوبيين » الذين كان لهم يد تذكر في إضرام الروح العربية وحفظ الشعلة القومية بين أبناء العرب في تلك الاصقاع

ولما انسحبت الجيوش التركية من الاصقاع العربية ودخل العرب الشام بقيادة فيصل في ٣ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٨ أخذت الشعر نشوة الظفر حتى كنت تراه في دمشق وبيروت والقدس وسائر الحواضر تتدفق الحماسة منه تدفق السيل كقول متحمس من قصيدة - (١)

أجل بزغت في الشرق شمس الحقائق برغم العدى والمزعجات الطوارق  
غداة انتضى العضب المهتد فيصل بكل كميّ رابط الجأش صادق  
لعمرك ما العرب الكرام يهوها صليل المواضي او دويّ البنادق  
ولا راعها ما جرّعت من مرائر وقد نصبت قدماً حبال المشانق

وقول الزهاوي من قصيدته الناثحة ( وقد مرّ ذكرها ) -

وجاءت خيول العرب تعدو ورائها بمقربة للانكليز خيول  
هنالك اهل الشام صاحوا وكتبوا وكبر اعلام بها وسهول  
وكان لاخذ الثأر قد ثار ضيغم له في مغار الغابتين شبول  
اغرّ كريم الاصل من فرع هاشم فطاب له فرع وطاب اصول

ويقول امين ناصر الدين في « الالهام » من قصيدة موضوعها يوم الصلح : -

فيالك يوماً فيه وثق للورى عرى الصلح رهط صادق العزم حازم

فنبلت حقوق واستقلت بمالك وأنصف مظلوم وجوزي ظالم  
نهضت بهم من وهدة اليأس جملةً فعيشهم غصّ الجوانب ناعم  
طلعت عليهم والوجوه عوابس ولم تمض الا والثغور بواسم

وقول اسعد خليل داغر من قصيدته «تاريخ الحرب الكبرى» في فتح سوريا : -

بشراك سورية العزيزة فافرحي ونهلي بخلص شعبك واطربي  
فالله مؤلك قد اجاب فبالغي ما شئت في حمد الاله واطني  
وعلى الألى نجوئك آيات النسا صوغي وعن قدر الصنعة أعربي  
اني لمنقذك العظيم لشاكر وبصره هذا لاكبر معجب

وفي ٢٣ تشرين الاول ( اكتوبر ) سنة ١٩١٨ احتفل العرب احتفالاً باهراً برفع العلم العربي في المكان الذي شق فيه شهادتهم، فكان لرفعه هزة ادبية عظيمة وهي تتجلى في عشرات القصائد والخطب التي جاشت بها خواطر الادباء من جميع المذاهب. واليك منها هذه القطعة الحماسية وهي من خمس للشيخ مصطفى الغلاييني<sup>(١)</sup>

راية العرب راية المدنية راية المجد راية الحرية  
انت هوى آمالنا الوطنية ومنار يهدي السبيل السوية  
دمت فينا مدى الزمان عليه

بك نحمي الحمى المقدسى ونحني ثمرات تحيي القلوب وتغني  
ونزجي الحياة في روض امن وارف ظله خصيب اغن  
في حمى دولة العلى العربية

ومن هذه الحماسيات قول شاعر مسيحي من موشح<sup>(٢)</sup>

ايها الابطال حيوا العلماء واحملوه  
وانصبوه فوق اسوار الحمى واحرسوه  
كن لقومي رمز مجد وعلاء في الامم  
وتموج فلك الشعب فداء يا علم

(١) راجع قصيدته «نشيد الحرية» في ديوانه (٢) حلم دموس . ديوانه - ٣٥٧



ويعكس شعور المهاجرين قول ابي الفضل الوليد من قصيدة موضوعها نشيد العلم<sup>(١)</sup>  
 للعرب حولك جندُ ايها العَلَمُ منهم تألفت الاوطار والهمم  
 من خضرة وبياض نعمة وهدى وحمرة وسواد نقمة ودمُ  
 الوانك استكملت ايجاد مملكة فيها تلاقى النهى والبأس والكرم  
 اليك نزنو وفي اجفاننا عبرٌ وفي القلوب شعور بات يحتدم  
 من الحجاز الى ارض الشام الى ارض العراق لك الآفاق تبسم  
 اذا طلعت تطلعتنا الى شرف وعزة فاطلت حولنا الامم  
 وقس على هذه الامثلة القليلة ما لو أثبتناه لما وسعته عشرات الصفحات

\*\*\*

كان الحزب العربي يأمل تأليف سلطنة عربية تضم الشام والعراق والحجاز وسائر  
 الجزيرة العربية تحت العَلَم الهاشمي. فتكون هذه الاقطار امارات مستقلة في ادارتها  
 الداخلية ولكنها مرتبطة بعرش واحد يجلس عليه الحسين وأولاده من بعده. وكان  
 هذا الحزب يوالي دولة بريطانيا العظمى ويعتبرها سنداً للدولة العربية وحليفة لها على  
 طواريء الزمن

فلما انقضى العام الاول على تأسيس حكومتهم في دمشق ظهر لهم ان ثقتهم بوعود  
 الحلفاء لم تكن قائمة على أسس ركين، وان الأعيب السياسة الاستعمارية لا يؤمن شرها،  
 فاخذ التشاؤم يتسرب الى نفوسهم. وبعد أن كانوا بالامس يطفرون طرباً لذكر  
 الثورة والعَلَم العربي والسيادة القومية، وقفوا يتهامسون بما سيؤول اليه أمرهم.  
 وطبيعي في مثل تلك الحال أن يمس زهرة شعرهم القومي شيء من الذبول — مسحة من  
 الشعور بالظلم. وعلى ذلك قول الزركلي سنة ١٩١٩ من قصيدة مطلعها : —<sup>(٢)</sup>

فيمَ الونى وديار الشام تُقْتَسَمُ ابن العهود التي لم تُرْعَ والذمم

وهي أكثر من اربعين بيتاً، وقد يصل فيها شعوره الى درجة الثورة على الظلم  
 فيقول متوعداً —

البّة بساء ظلمت وطني وأنبتت عشب بالغيث ينسجم  
 لئن تولتوا رعيناً حسن ودمٍ وصين منا ومنهم في العروق دمُ

وأشد من ذلك قول الغلاييني في دمشق سنة ١٩٢٠ - (١)  
 هبّوا فأمّنتكم أمست على خطرٍ جارت عليها الاعادي جور مُنتقمٍ  
 حتى تسيل ربوع الشام مُفعمةً دماً يسيل الردى في سبله العَرمِ  
 وذمة العُرب والايام شاهدةٌ لنُزمنّ الوغى في السهل والظلمِ  
 حتى يخلّوا بلاد العُرب أجمعها من ساحل الروم حتى ساحل العجم

\*\*\*

ولم يكن شعراء المهجر أقلّ من شعراء الوطن شعوراً بمكائد الاستعمار وخوفاً  
 من ضياع الآمال . ففي الحفلة الكبرى التي احيها الحزب الوطني السوري في  
 بونس ايرس سنة ١٩٢٠ احتفالاً بتسليم فيصل عرش سوريا القى الدكتور جورج  
 صوايا قصيدة حماسية قال فيها مخاطباً الامة العربية (٢) -

يا امّتي جاهري بالحق لا تجمي ونازعي الخلق بقيا مجدك المهّرم

ومنها مشيراً الى فيصل والعلم العربي -

قد قام فينا صلاح الدين ويهم فليقم الشام من قد قال لم يقم  
 ففصل العُرب مستلّ بساحتها في حده الحدّ بين الذل والشم  
 يا ايها الشعب دافع عن كيانك لا تجبن وذذّ بالقنا عن مجد ذا العلم

وقد حملت الحماسة شاعراً كبيراً من شعراء المهجر ان يطلب من وطنه لبنان  
 الانضمام الى الدولة العربية في سوريا واليك بعض قوله في ذلك (٣)

فانّ لم ترضَ بالعُرب اتّصالاً فلا تجعل جزاء الخير شراً  
 ولا تطلب لاوريا انتصاراً على الشعب الذي ولاك نصراً

ويقول مخاطباً فيصل -

أقبِصْ والمطامع محذقاتُ بنا وحوادث الايام تترى  
 فلا تترك لذي طمع علينا يدأ تحفي وراء الحلو مرّاً

(٢) ديوانه مسمى الشاعر ص ١٠٥

(١) ديوانه ٩٦

(٣) الباس فرحات - راجع مجلة الاصلاح ( بونس ايرس ) مج ٦ عدد ٨

ثم يتطرق الى ذكر الاحزاب واختلافها والى آمال الوطنيين الاحرار فيقول  
متوعداً -

وان نفشل ويفشى الشام ضمٌ جعلنا الشام للافرنج قبرا  
ولهذا الشاعر الوطني كثير مثل ذلك

ومن يراجع الشعر العربي السياسي في السنتين التاليتين للحرب (١٩١٩ و ١٩٢٠) يجده واحداً في جميع الاوساط السورية والعراقية - نقمة على سياسة اوربا في الشرق<sup>(١)</sup> ودعوة الى الجهاد في سبيل الاستقلال والمحافظة على كرامة العَلَم العربي . ولعل اهم ما اثار النفوس في ذلك الوقت واقعة ميسلون وما كان من بسط الانتداب على البلاد السورية - ثم الثورة العراقية والهائها العصبية القومية على ضفاف الرافدين (وستذكر في باب خاص)

\*\*\*

اما مصر فكانت مشغولة باحوالها الخاصة - كان شعرها السياسي منصرفاً الى محاربة الاحتلال ، وتوجيه نظر الامة الى الاستقلال . وبرغم ما كنا نراه يومئذ لبعض ادباء المصريين من العطف على القطرين الشقيقين ( سوريا والعراق ) لا يسعنا الا ان نقول ان الرأي الادبي العام في وادي النيل لم يكن عربيّ النزعة - بل نذهب الى ابعد من هذا فنقول انه كان ناقماً ثورة الحسين على الخلافة العثمانية ، تلك الثورة التي انتهت بانتصار الحلفاء وتعزيز الاحتلال (عهدئذ) في مصر . ولذا وقف الشعر المصري ازاء القضية العربية وقفة المعرض نافضاً يده من كل ماله علاقة سياسية او قومية بسائر البلدان العربية .

ويؤيد قولنا هذا ما صرّح به مصريّ صميم<sup>(٢)</sup> اذ قال في حفلة تكريم الوفد العراقي سنة ١٩٣٦ مشيراً الى هذا الموقف والى تحويل الشعور المصري<sup>(٣)</sup> -

« منذ عشرين سنة أو نحوها كان اكثر المصريين اذا ذكر البلدان العربية ذكرها في شيء من الموجدة بشبه الاحاد». وبعد أن يذكر أن نظرهم الى الاقطار العربية لم

(١) يمثل ذلك قصيدة « المشرقية » لناصر الدين - ديوانه الالهام ١٨٢

(٢) محمد توفيق دياب منشئ جريدة الجهاد (٣) راجع خطابه في صوت الاحرار عدد ٧٦٢

يكن مختلف عن نظرم الى أي قطر شرقي - كالبايان او الصين مثلاً - يقول - «تلك المرحلة الاولى كانت مرحلة الوسوس والشكوك»<sup>(١)</sup>. فلما توالى الخطوب دراكاً على الاخوات المتقاطعات استيقظت روح الايمان من سباتها العميق فاخذت الالسنه والافلام العربية كلما ذُكرت العروبة وآلام الشقيقات ذكرتها مصعوبة بشعور من الاخاء لم يكن قبل موفوراً ،

\*\*\*

وقد كان الشعراء في سوريا والعراق حتى في « مرحلة الشكوك والوسوس » التي يشير اليها الاستاذ دياب اعطف على القضية المصرية . على ان تحول الشعور المصري الاخير نحو الشقيقات العربية قد زادهم حماسة واهتماماً وسنرى بعد كيف يظهر ولاءهم للوطنية المصرية وقدرهم لجهادها .



(١) يؤيد ما ذكره الاستاذ دياب عما كان عليه الشعور المصري سابقاً نصريح للدكتور طه حسين . راجع « المكشوف » بيروت ١٩٥٥

# المشادة

## بين الانتداب والاستقلال

وضعت الحرب الكبرى أوزارها وللوطنيين في البلدان العربية ، ولاسيما مصر وسوريا والعراق ، آمال قومية واسعة . على ان عصبة الامم لم تلبث ان قررت ان هذه البلدان لا تزال في حاجة الى وصاية او ارشاد بعض الدول الكبرى . وهكذا وضع نظام الانتداب او الحماية ( سمّه ما شئت ) . فاعتوى الشرق العربي شعور عام بالحبية واستفز ذلك العناصر الوطنية فهبت تسعى لنيل أمانها . وهذه المساعي هي أساس العوامل التي كان لها أعظم اثر سياسي في شعر الحقبة الاخيرة . وهي تظهر في اربع ظواهر رئيسية : -

١ - كفاح القومية المصرية

٢ - الثورة العراقية

٣ - الثورة السورية

٤ - المشكلة الفلسطينية

ولنلق نظرة عجيلى على كل منها

﴿ كفاح القومية المصرية ﴾ وهو قديم يرجع عهده الى بدء الاحتلال البريطاني، على ان أول من نظّمه وأول من وحد الاتجاهات الوطنية مصطفى كامل مؤسس الحزب الوطني . وقد صدق امين الرافعى إذ قال (١) - « تبددت بمصطفى كامل كلّ الاباطيل التي كان خصوم مصر يذيعونها عن الروح الوطنية في البلاد ، وكان احتفال الامة بجزائره أروع مظهر اثبتت به مصر أنها أمة حية لا تستطيع ان تعيش الا امة مستقلة »

وقد الهب مصطفى كامل الشعر العربي في مصر وفي غير مصر وجراً الشعراء على مهاجمة المحتلين ومطالبتهم بالجلء ، كما دفعهم الى التغني بالحرية والكرامة القومية فلا بدع ان نرى في الشعر العربي عند موته اتقاداً تتأجج فيه العواطف القومية كقول حافظ ابراهيم من يائيته المشهورة في ذلك الزعيم - :

هنيئاً لهم فليأمنوا كلّ صائح      فقد أسكت الصوت الذي كان عالياً  
ومات الذي أحيا الشعور وساقه      الى المجد فاستحيا النفوس البواليا  
شهد العلي لا زال صوتك بيننا      يرنّ كما قد كان بالامس عالياً  
يناشدنا بالله ان لا تفرّقوا      وكونوا رجالاً لا تسرّوا الاعاديا  
وأشد من ذلك قصيدته في حفلة تأبينه ومطلعها (١) : -

نثروا عليك نوادي الازهار      واثبتْ انثر بينهم اشعاري  
زين الشباب وزين طلاب العلي      هل انت بالمهج الحزينة داري  
غادرتنا والحادثات بمرصد      والعيش عيش مذلة وإسار  
ما كان احوجنا اليك اذا عدا      عادٍ وصاح الصائحون بدار  
ومنها: قم وامح ما خطت بين كرومر      جهلاً بدين الواحد القهار  
جزع الهلال عليك يوم تركته      ما بين حرّ اسيّ وحر اوار  
متلفئاً متحيراً متخيراً      رجلاً يناضل عنه يوم فخار

وقصيدته الذكري ومطلعها: (٢) :

طوفوا بأركان هذا القبر واستلموا      واقتضوا هنالك ما تقضي به الذمم  
ومنها: هنا الكمي الذي شادت عزائه      لطالب الحقّ وكناً ليس ينهدم  
لبّيك نحن الألى حرّكت انفسهم      لما سكنت ولما غالك العدم  
قيل اسكتوا فسكتنا ثم انطقنا      عسف الجفاة وأعلى صوتنا الألم  
لبّيك إنا على ما كنت تعهده      حتى نسود وحتى تشهد الامم  
فيعلم النيل انا خير من وردوا      وبستطيل اختيالاً ذلك الهرم  
يا ايها النشء سيروا في طريقته      وثابروا رضي الاعداء ام نقموا  
فكلكم مصطفى لو سار سيرته      وكلكم كامل لو جازه السأم

ولشوقي في رثاء مصطفى كامل قصيدة مشهورة مطلعها -

المشرقان عليك ينتحبان في ماتم قاصيهما والداني

وهي من عبون الشعر . ويدور أكثرها على مآثر الفقيد وشخصيته ومنزلته في قلوب الناس . ومثلها قصيدة لحليل المطران تجدها في ذيل ديوانه مطلعها « اعلى ممكانتك الاله وشرقاً » . وهي أكثر من تسعين بيتاً عامراً وتُصور الفقيد زعيماً وطنياً ضحى بحياته في سبيل بلاده كقوله

مصر التي كافحت لُدَّ عُداتها متصدراً لرُماتها مستهدفاً  
مصر التي سقت الجيوش مناقباً ومُنَى لتكفيها المغير المحجفاً  
عرّفت اهليها حقيقة قدرهم وكفاهم من قدرهم أن يُعرفا

ومن المراثي التي تذكر قصيدة احمد نسيم - ما بال دمك لا هام ولا جار<sup>(١)</sup> -  
وبمناسبة الذكرى السابعة عشرة لوفاة مصطفى كامل نرى لشوقي قصيدة تنضح بالوطنية كقوله يخاطب الفقيد<sup>(٢)</sup>

لك الحُطْبُ التي غصّ الاعادي بسورتها وساعت للندامى  
فكانت في مرارتها زُئيراً وكانت في حلاوتها بغاماً  
بك الوطنية اعتدلت وكانت حديثاً من خرافة او مناما  
بنيت قضية الاوطان فيها وصيرت الجلاء لها دِعاماً

وفي هذه القصيدة يستعرض احوال البلاد السياسية ثم يستطرد الى ما تحتاج اليه من وسائل الاصلاح

ومن اراد ان يعرف شيئاً من الحركة الادبية التي احدثها موت مصطفى كامل فليرجع الى الصحف العربية سنة ١٩٠٨ ، والى ما نشر من الشعر في ذلك العهد وكذلك الى ما قيل فيه يوم ازاحة الستار عن تمثاله ( ١٤ مايو سنة ١٩٤٠ )<sup>(٣)</sup>

\*\*\*

(١) راجعها في ديوانه (١٩٠٨) ص ٢٣ (٢) الشوقيات ١ - ٢٧٧

(٣) راجع «الاهرام» ١٢ مايو ١٩٤٠ وخصوصاً قصيدة خليل مطران التي مطلعها - امنوا بموتك

وينتقل لواء الجهاد الوطني الى يد سعد زغلول . وفي سعد تجسّمت خوالج الامة المصرية وامانيّتها بعد الحرب العالمية الاولى . وقد اصبح مثلاً في الجهاد القومي لكل الامم العربية المجاورة . فها هو يثير مصر مطالباً بالاستقلال ، وها هو يُنفى مع رفاقه الى جزيرة سيشل . ولما افرج عنهم وعادوا الى الوطن استقبلهم الشعر العربي استقبال الابطال وقد اشترك فيه اكثر الادباء في وادي النيل وفي مقدمتهم شوقي وحافظ والمطران والعقاد والمازني ومحمد عبد المطلب واضراهم . وبموت سعد بلغت الحماسة الشعرية اعلى درجاتها . فنظم في مصر ، كنظم في سوريا ولبنان والعراق والمهاجر ما لا يستطيع حصره الا في مجلد خاص ، من مرثي تصف مناقبه العالية وكفاحه الوطني المجيد<sup>(١)</sup> . وقد اقيمت له حفلات تذكارية متعددة نذكر منها خارج مصر تلك التي اقامها العراقيون في بغداد ١٩٢٧ وادباء المهجر البرازيلي في سانبولو سنة ١٩٢٨ وقد اشترك فيها ابرز الادباء في تلك الاقطار

ولم تمت الحركة الوطنية المصرية بموت سعد بل ظلّ خلفاؤه يناضلون . وقد استطاعوا بثباتهم ان ينالوا حق الاعتراف باستقلال مصر وعقدوا مع بريطانيا معاهدة صداقة فتمّ لهم تنظيم شؤونهم . ولم يلبثوا ان دخلوا عصبة الامم وقد تخلل هذا النزاع الطويل الذي رفع لواءه مصطفى كامل وسعد زغلول وغيرهما من رجال مصر حوادث شتى كان لها اثرها الخاص في الشعر كحادثة دنشواي ورفع الحماية ، واعلان الملكية ، وثورة ١٩١٩ ، ومسألة الامتيازات الاجنبية وغيرها . على ان هذه الحوادث عند التحقيق ليست الا حلقات من سلسلة المشادة بين الانتداب والاستقلال

١ \* الثورة العراقية \* من المعلوم انه لما احتلت بريطانيا العراق نشرت للعراقيين ( كما نشر لسواهم من ابناء العربية ) منشوراً تبين فيه اسباب احتلالها وأنها انما تقصد تحرير العرب لا فتح بلادهم . واليك نص هذا المنشور<sup>(٢)</sup> : —

« إن الغاية التي ترمي اليها بريطانيا العظمى وفرنسا من مواصلتها في الشرق تلك الحرب التي اثارها مطامع الالمان هي تحرير الشعوب الراوحة منذ زمن تحت نير

(١) راجع من ذلك قصيدة بشارة الخوري « قالوا دعت مصر دعياء » . وراجع ديوان

الاحلام ١٩٦

(٢) راجعه في « العراق في دوري الاحتلال والانتداب » للحسين ص ٨٥



الاستبداد التركي تحريراً تاماً وتشديد حكومات وادارات وطنية تستمد سلطتها من رغائب الاهالي الوطنيين الصادرة عن رضاهم وحسن اختيارهم . وتوصلاً لهذه الغاية قد اتفقت بريطانيا العظمى وفرنسا على تشجيع ومساعدة حكومات وطنية في سوريا والعراق اللتين قد تم تحريرهما فعلاً على يد الحلفاء وفي البلدان الاخرى التي يسعى الحلفاء لتحريرها والاعتراف بهذه الحكومات عند ما يتم تنظيمها فعلاً . وان بريطانيا وفرنسا لا يخطر في خلدبها قط ارغام هذه البلدان على قبول نظمات معينة من اي نوع . وجل اهتمامهما هو ان تضمننا لهذه البلدان بمساعدتها الفعالة سير الحكومات والادارات التي يتخذونها عن محض ارادتهم سيراً منتظماً الخ الخ »

فكان من الطبيعي ان يتوقع العراقيون والسوريون وسواهم عهداً استقلالياً تاماً . لكن الامور في العراق جرت منذ الاحتلال على غير ما يرام فقد رأى العراقيون سوريا تتمتع حيناً ( أيام فيصل ) بالاستقلال وبالمملك وهم لا يزالون تحت نير الانتداب ثم حدثت حوادث زادتهم امتعاضاً من حكامهم البريطانيين . فأخذ الوطنيون منهم يتفاوضون ويبحثون سراً في موقفهم واتفق الوجهاء ورجال الدين على طلب الاستقلال وتعيين أمير من انجال الحسين . وفي سنة ١٩٢٠ دارت بينهم وبين البريطانيين مراسلات ادّت الى مؤتمر عام قدم فيه المندوبون العراقيون ثلاثة مطالب رئيسية هي : - (١)

١ - الاسراع في تأليف مؤتمر يمثل الامة العراقية ليعتّن مصيرها وشكل ادارتها ونوع علاقتها بالخارج

٢ - منح حرية المطبوعات ليتمكن الشعب من الافصاح عن رغائبه وافكاره

٣ - رفع الحواجز البعيدة بين انحاء القطر اولاً وبينه وبين الاقطار المجاورة والممالك الاخرى ثانياً ليتمكن الناس هنا من التفاهم بعضهم مع البعض ومن الاطلاع على سير السياسة الراهنة في العالم

والظاهر ان التفاهم بين السلطة والوطنيين كان متعذراً فعمدت السلطة الى سياسة الارهاق، وقبضت على بعض الزعماء فنفت بعضاً واعتقلت آخرين . لكن هذه السياسة لم تأت الا بعكس المطلوب . فقد اخرجت الوطنيين ولاسيما سكان وادي الفرات

حتى افنى امامهم الكبير محمد تقي الشيرازي بجواز امتشاق الحسام في وجه السلطة  
دفاعاً عن الحقوق القومية<sup>(١)</sup>

وهكذا نمت فكرة اعلان الثورة. وقد القى محمد الباقر الشيباني يومئذ خطبة حماسية  
وانشد قصيدة منها<sup>(٢)</sup>

بني يعرب لا تأمنوا للعدى مكرًا      خذوا حذرکم منهم فقد أخذوا الحذرًا  
يريدون فيكم بالوعود مكيدة      ويبغون ان حانت بكم فرصة غدرا  
فلا يخذعنكم لينهم وتذكروا      اضاليلهم في الهند والكذب في مصرًا  
ومن مات دون الحق والحق واضح      اذا لم ينل فخراً فقد ربح العذرا

وفي هذه الثورة يقول مهدي الجواهري من قصيدة<sup>(٣)</sup>

إلام التواني في الحياة وقد قضى      على المتواني الموت هذا التنازع

وبعد ان يذكر ان في العراق نهضة يقابلها نهضات في سائر البلدان العربية يقول عن  
الناشرين

ويوم نضت فيه الخول غطارف      يصان الحمى فيهم وتحمى المطالع  
تشوقهم للعر نهضة ثائر      حين ظمأ اسلمتها الشارع  
لقد عظموا قدراً وبطشاً وانما      على قدر اهلها تكون الوقائع  
وما ضرهم نبو السيوف وعندهم      عزائم من قبل السيوف قواطع  
اذا استكروها طعم المات فأبطأوا      أتبع لهم ذكر الخلود فسارعوا

ثم يصف الثورة في الكوفة ووادي الفرات واستفزاز الانكليز لهم، ويعدد مناقب  
موري شرارتها الاولى الشيخ الشيرازي . ومن قوله فيه : -

اثور به للموت نفس أبيّة      وتأبى سوى عاداتهم الطبايع  
يطارحه وقع السيوف اذا مشى      كما طارح المشتاق في الأيك ساجع

والقصيدة اكثر من ٧٥ بيتاً وكلها على هذا النمط الحماسي . وله قصيدة اخرى

في الثورة مطلعها<sup>(١)</sup>

ان كان طال الامدُ فبعد ذا اليوم غدُ

ولخيري الهنداوي في الثورة قصيدة طويلة نارية الروح مطلعها<sup>(٢)</sup> - ايها الشرق  
هل فقدت الشروقا - ومنها مخاطباً وطنه

انت اذنبت ام بنوك ام الظلام شاءوا ان يغصبوك الحقوقاً  
بيتوا امرهم بليلٍ وجاءوك جميعاً يتلو فريق فريقاً  
حاولوا - لا ابا لهم - ان يكون الشرق كالعبد مستضاماً رقيقاً  
فنهضنا كالأسد في اوجه القوم لنجثت بغيبهم والفسوقا  
ومنها : ويك لا ارتضي الحياة بذلّ قم فمزق إهابها تمزيقاً  
وادر لي في الرافدين حمياً الحرب صرفاً وكسر الابريقا  
ان موتاً يكون في ساحة العزّ لموت أجدر به ان يروقا  
الى ان يقول -

ليت شعري هل مبصر انا يوماً عَلم ابن الحسين فيها خفوقا  
تلك أمنيّتي فلا عيش الا ان اراها تهتز غصناً وريقا

ومن موقدي الشعور الوطني بومئذٍ الشيخ مهدي البصير شاعر الحلة وهو من  
الذين اعتقلوا ونفوا . ومن شعره الثوري المحرّك قوله في قصيدته «لييك ايها الوطن» .  
ومطلعها<sup>(٣)</sup> -

ان ضاق يا وطني عليّ فضاكا فلتتسع بي للامام خطاكا  
ومنها : بك همت اوبالموت دونك في الوغى روعي فداك متى اكون فداكا؟  
ثق انني سأذبّ دونك باذلاً روعي لارخصها فما اغلاكا  
فليسخط الغربيّ اني فاهضٌ اقصى رجائي ان اثال رضاكا  
كذبتك اقطاب السياسة عهدا فلتضمنن لك الحياة ظباكا  
ايفطلبون لك الرعاية ضلة ما كان اقصرهم وما احجاكا  
لو انصفوك لحردوك لانهم رجحوا قضيتهم بظلم لواكا

ومثل هذه العواطف تتجلى في شعر عبد الحسين الازري، ومحمد ابي المحاسن، وعلي الشرقي، ومحمد الهاشمي، وسواهم . اما الزهاوي والرصافي فلم نر لهما شيئاً من ذلك في ما نشر من شعرهما

\*\*\*

اشتعلت الثورة فوق من ضحاياها مئات من الطرفين . ولم تر بريطانيا بدآ من مصالحة الثوار فاصدرت منشوراً بالعفو العام . ثم « شكلت » للعراق حكومة وطنية موقته الى ان يتم انعقاد مؤتمر عربي عام يعين مصير البلاد وشكل حكومتها . وكان فيصل في اثناء ذلك قد انهار عرشه في دمشق، فقرر باتفاق الطرفين انتخابه ملكاً على العراق وصرف النظر عن عقد المؤتمر العام . على ان الشعب استغني في امر انتخابه فقال ٩٩ بالمئة من الاصوات . وهكذا نودي به ملكاً واحتفل بتتويجه في ٢٣ آب ( اغسطس ) ١٩٢١

وكان لهذا الحادث التاريخي اثر يذكر في الادب العربي فقد القي فيه من الخطب والقصائد ما لا يتسع المقام لذكره . واليك انموذجاً منه قصيدة انشدها الزهاوي في حضرة الملك فيصل على اثر قدومه عاصمة الرشيد<sup>(١)</sup> وفيها يقول : -

انا محيوك فاسلم ايها الملك	ومصطفوك لعرش شاده الفلك
عرش العراق ضمان للعراق وفي	تأييده الشعب والاحزاب تشرك
الناس من فرح إذ جئت تراسهم	من بعد ما قد بكو امن بأسهم ضحكوا
قد ارتضاك له فاهناً بدولته	الله والناس والتوفيق والملك
هذا السلام يعم الرافدين غداً	فلادم بعد هذا اليوم ينسفك
جري ليلحق ناس بابن فاطمة	حتى اذا تعبوا في جريمهم بركوا
من هاشم من قريش من ذوائبها	حيث الوشائج والارحام تشبك
ومنها : الله يا فيصل ما انت مورثه	للغرب من شرف في شكره اشتركوا
في نهضة برجال كنت تراسهم	حيناً لتحرير اوطان بها انسبكوا
عش للرقى فان الشعب اجمعه	مذهباً يفتح عينيه به سدك

\*\*\*

ولا ينكر انه بتنصيب فيصل استقرت الحال نوعاً في العراق على ان الاماني القومية لم تصل وثبة واحدة الى غايتها . فكان موقف العرش حرجاً بين السلطة المنتدبة والقومية العراقية المتوثبة لكنّ فيصلاً كان ربّاناً ماهراً فسّير المركب بين اللجج برفق وحكمة ، واستطاع قبيل موته ان يوقّع على معاهدة الاستقلال وان يدخل العراق في عصبة الامم

ولم يخل الشعر العراقي في اثناء ذلك من روح التبرم فبرغم النهضة السياسية في العراق وبرغم ما كان يضيء في العهد الفيصلي من انوار الامل والاستبشار ظلّ فريق من كبار اديبائه يغلب عليهم التشاؤم فينفثونه شعراً قائم اللون ناقماً سوء الحال . وزعيم هذا الفريق الرصافي كما ترى في قصيدته للريحاني سنة ١٩٢٢ اذ يقول<sup>(١)</sup> -

أُمينُ جئتُ الى العراق لكي ترى      ما فيه من غرر العلى وحجوله  
عفواً فذاك النجم أصبح آفلاً      والقوم محتربون بعد افوله  
ومنها : واذا وقفت بدارسٍ من مجده      فكوقفه الباكين بين طولوه  
وانحب كما تحب الحزين مكفكفاً      غرب الدموع بجاني منديله  
ومنها : حال لو افكر الحكيم بكنهه      طول الزمان لعيّ من تعليله  
من ذا يبدله فان قوارعي      يئست لعمر الله من تبديله

الى ان يقول . -

من اين يرجي للعراق تقدم      وسبيل يمتلكه غير سبيله  
لاخير في وطن يكون السيف عند جباهه      والمال عند نجيله  
والراي عند طريده والعلم عند غريبه      والحكم عند دخيله  
وتظهر هذه الروح في قصيدته في حفلة الحزب الوطني البغدادي للستر كراين الاميري ( سنة ١٩٢٩ ) اذ يقول<sup>(٢)</sup>

واذا تسأل عما هو في بغداد كأن  
فهو حكم مشرقى الضرع غربي الملاين  
وطني الاسم لكن انكليزيّ الشناشن  
قد ملكنا كل شيء نحن في الظاهر لكن...

نحن في الباطن لا نغلك تحريكاً لساكن

ومثل ذلك قصيدته « الحرية في سياسة المستعمرين » ( ديوانه ٤٢٦ ) وغادة الانتداب (٤٢٧) وكيف نحن في العراق (٤٣٥) وحكومة الانتداب (٤٣٧) هذا الشعر المتبرّم الناقم كان شائعاً في الاوساط القومية المتشددة ويقابله شعر وطني مستبشر كان ينظر الى الامور بعين الرجاء مؤمناً بالنهضة الجديدة واثقاً بتقدمها. ومن امثله ما قيل في العلم العراقي والنهضة العربية ، وآمال الشباب والملك العربي والسيادة القومية وما الى ذلك، كقول الجواهري من قصيدة في سفر الملك فيصل الى جنيف (١٩٣١) تمهيداً لدخول العراق عصبة الامم<sup>(١)</sup>. يفتتحها بوصف مناقب فيصل وحسن سياسته وجميل خدمته للعراق ثم يقول

لا ادّعي ان قد اتم غوه من كان امس بشكل طفل حاب  
فلتلك ليست بالبعيد منها عن كل شعب طامح وثاب  
لكن اقول اريدته مستقبلاً لا بالقديم سناً ولا الخلاب  
كالشهد اول ما تذوقه فم ما زال بين لاه طعم الصاب  
فاليوم ها هوذا بظلك يحتمي مثل احتماء العين بالاهداب

ومثل هذا القول بل واكثر منه استبشاراً واثقاً بالمستقبل يتجلى لك في كثير من الشعر الذي نظم في عهد فيصل وعهد خلفه الملك غازي الأول

﴿ الثورة السورية ﴾ ذكرنا ان دمشق كانت بعد الحرب الكبرى اول عاصمة خارج الحجاز نودي فيها بالاستقلال العربي . وهاك اول بوقية وردت الى بيروت بعد دخول العرب دمشق ( وقد نشرت في ٢٤ ذي الحجة سنة ١٣٣٦ بتوقيع الامير سعيد الجزائري ) - « بناءً على تسليّات الترك فقد تأسست الحكومة الهاشمية على دعائم الشرف طمنوا العموم واعلنوا الحكومة باسم الحكومة العربية »

ومعلوم ان سوريا بعد الحرب عهد بادارتها المستقلة الى الامير فيصل . ثم حدثت حوادث وجرت مفاوضات سياسية لا مجال لذكرها الآن . وفي خلال ذلك تم لحكومة دمشق تنظيم المؤتمر السوري ممثلاً لجميع الاقطار السورية ومنها فلسطين فأعلن في ٧ آذار ( مارس ) سنة ١٩٢٠ المناداة بالامير فيصل ملكاً دستورياً على البلاد السورية<sup>(٢)</sup>

على ان ذلك الاستقلال لم يطل عهده ففي ٢٥ تموز ( يوليو ) من السنة نفسها دخل الجيش الافرنسي دمشق فاضطرّ فيصل الى ترك عرشه وأصبحت سوريا داخلة في منطقة الانتداب . وبذلك أخذت تلك النائرة الملكية التي كان السوريون قد بدأوا يغتبطون بها . فبعد ان كان الشعر العربي في حمائم شعر القومية السائدة والوطنية الجذلة والراية العربية الحفاقة اصبح ذكريات مؤلمة كقول الشاعر من قصيدة في وداع فيصل مطلعها<sup>(١)</sup> : —

أضاعوه وكان فتىً هماما	وبالاطوان صباً مستهما
(أضاعوه واي فتىً أضاعوا)	أضاعوا القلبَ والبدَ والحساما
فودّع في الدجى تاجاً وعرشاً	ومملكةً وآمالاً جساما
هو التاريخ عاد فعُد اليه	وصف غرناطة تصف الشّاما
سلاماً يا أبا الغازي سلاما	يعزّ على المروءة ان تضاما
أطعت عصابة ضلّت فكانت	بصدر جهادك الماضي كلاما
ولولا ذاك كنت الملك فينا	ولكن ابعدوا عنك الكراما
فسادت في رحاب القصر فوضى	فلأ رأياً هناك ولا نظاما

وكقول الغلاييني من قصيدة نظمها في دمشق ( ٢ ك ١٩٢٠ ) ومطلها — وقفت على الاطلال اطلال قعطان<sup>(٢)</sup> —

لئن كنتم من قبل في يد غاصب	ضعيف القوى من خمرة الجهل نشوان <sup>(٣)</sup>
فانكم ذا اليوم نهبٌ مقسّم	بأيدي شداد شرّها منكم داب
وقدتم وسيف القوم يرهف حده	وما غمده الا طلي آل عدنان

وله كثير مثل ذلك

وكذلك لحير الدين الزركلي كقوله من قصيدة سنة ١٩٢٢ وهو في عمان<sup>(٤)</sup>

أبكي ديارا خلقت للجمال  
ابهي مثال

أبكي تراث العزّ والعزّ غال  
صعب المنال  
أبكي جلال الملك كيف استحال  
الى خيال

وله قصيدة سماها الفاجعة<sup>(١)</sup> نظمها على اثر واقعة ميسلون ودخول الجيش الفرنسي الشام ومطلعها -

الله للحدثان كيف يكبد  
بردى يغيض وقاسيوت يمد  
ومنها ما في دمشق لناهض من عزّة  
وبها سرادق غاصب بمدود  
بلد تبوأه الشقاء فكما  
قدم استقام له به تجديد  
وبعد ان يصف الجيش واتخاذ السوريين لتنافر زعمائهم يقول : -  
خدعوك يا أمّ الحضارة فارمت  
تجني عليك فيالق وجنود  
من ذا يكفكف أدمعاً مرافقة  
كالغيث تهطل حسرة وتجدود  
تسقي بها في الغوطتين مباسم  
ذهب النواح بمائها وخدود

وفي الذكرى الاولى لاستقلال سوريا ينشد الكاظمي في مصر قصيدة مطلعها :  
«أفي مثل هذا اليوم طاف المبشر» تشف عن شعور الناس في ذلك الحين<sup>(٢)</sup>  
ولو راجعنا ما نظمه كبار شعراء سوريا بعد سقوط العرش الفيصلي كمن مرّ  
ذكرهم ، وكخليل مردم ، وفارس الخوري ، وشفيق جبيري ، ومحمد البزم ، وفؤاد  
الخطيب ، ومحمد الشريقي وبدر الدين حامد واضرابهم ، وما نظمه زملاؤهم في سائر  
الأقطار العربية والمهاجر ، لوجدنا عليه مسحة من الألم تشف عن أسفهم على ما ضاع  
من آماني وتبدّد من احلام

\*\*\*

في خلال ذلك كانت العراق ( كما مرّ معنا ) تتقد بالثورة ومصر تجاهد تحت لواء  
سعد . وقد رأى السوريون نتائج الثورة العراقية والجهاد المصري ، فكان ذلك دافعاً  
لهم الى تنظيم الكلمة ومناوأة الانتداب  
ولم تلبث هذه المناوأة ان انجلت عن ثورة ١٩٢٥



ولسنا نبحت الآن عن الاسباب البعيدة او المباشرة لهذه الثورة فذلك عمل مؤرخيها ، على أننا نقرر هنا انها كانت خطوة كبرى في سبيل الهدف المنشود . فقد انتهت بتنظيم الكتلة الوطنية ، ثم باعلان الجمهورية ( سنة ١٩٣٢ ) وبالاتفاق مبدئياً على معاهدة شبيهة بمعاهدة العراق

وقد نظم في الثورة السورية والحركة الوطنية شعر كثير اشتركت فيه جميع الاقطار العربية . فمن مصر مثلاً شوقي وحافظ ، ومن العراق الرصافي والجواهري ، ومن المهاجر السورية اللبنانية الشاعر القروي والياس فرحات والدكتور جورج صوايا والياس قنصل وابو الفضل الوليد ومسعود سماحه

ومن لبنان وفلسطين مصطفى الغلاييني وعلي الحوماني وابراهيم طوقان وفتي الجبل وسواهم . فاذا أضفت هذه الاسماء الى اسماء شعراء سوريا الذين مر ذكرهم والى اسماء كثيرين في انحاء البلاد العربية ممن لم يذكرنا استطعت ان تقدر ما كان لهذه الثورة من الاثر في الشعر العربي . واننا نشير هنا اشارة خاصة الى دواوين الغلاييني ، والحوماني ، والشاعر القروي ، والياس قنصل وبدر الدين حامد لما يتأجج فيها من نيران تلك الثورة وما تحمله الى الاقطار العربية من حرارتها المتقدة

﴿ الجامعة العربية والروح الاقليمية ﴾ رأينا من الفصول السابقة ان الدعوة للعربية لم تكن قبل الدستور العثماني منظمة او ذات هدف معين بل كانت عاطفة قومية تظهر من حين الى آخر في الادب العربي بمظهر التذكير بالماضي والاهابة بآبناء الشرق العربي الى التقدم في سبيل العلي . فلما دخل العرب العهد الدستوري واصبحوا يرون مجلاء ما لهم وما عليهم اخذتهم الغيرة القومية فبدأوا يلهبون بها ، وشعروا ان العنصر السائد في السلطنة يقاومها فازدادوا تعلقاً بها ، ولم يلبثوا ان نظموا الجمعيات والهيئات السياسية ، فانتشرت بينهم دعوة قومية ترمي الى استقلال الاقطار العربية استقلالاً ادارياً

وفي الحرب الكبرى اعلنت الثورة الحجازية باسم العرب والملك العربي ولما وضعت الحرب اوزارها انتشرت الدعوة للجامعة العربية تحت لواء الهاشميين انتشار النار في الهشيم ، وكانت ترمي الى احياء مجد العرب بتنظيم دولة كالدولة الاموية في الشام تضم الاقطار السورية والعراقية والحجازية ثم تندرج الى سواها

حلمٌ جميل استعذبه السواد الاعظم من سكان تلك الاقطار ، وقد كان مصدر الهام لكثير من الشعر القومي والخطب الحماسية . ولن ننسى يوم نُشر العَلَم العربي في بيروت وقد استولى فيه على الناس شعور غريب لا عهد لهم به من قبل - شعور الكرامة القومية الحرة . كان الاحتفال في دار الحكومة ، وهالك بعض ما قاله الخطيب « الرسمي » مخاطباً الشعب العربي<sup>(١)</sup> -

« ان هذه الراية التي تنشر اليوم هي شعار استقلالك وستكون خافقة فوق رأسك ما خفق فؤادك لها ، فان بقاءها هو اليوم في يديك . فان احببت لها البقاء فاستمت في حبها واعمل على اعلانها بين الامم . ان البلاد العربية اليوم هي بمثابة كتلة وطنية واحدة خاضعة لحكم شريف مكة واميرها وملك البلاد العربية جلالة مولانا المفدى حسين الاول . واننا لا ننسى ابداً لخلقنا ونخص منهم دولة انكلترا العظمى المساعدة العظيمة التي قاموا بها نحونا لحصولنا على هذه النعمة الكبرى »

وقد اقيمت المهرجانات لرفعه في الشام وسائر المدن السورية . ولم يشكك احد يومئذ في ان الملك العربي اصبح امراً واقعاً وان انتصار الحلفاء على الاتراك كان الحجر الاساسي في توطيده

ودارت الايام فاذا بالانتداب يفرض على البلدان العربية . واذا بالحكومات العربية الاقليمية تبرز عوضاً عن الدولة العربية المتحدة، واذا في الادب العربي فكرتان تتصارعان فكرة الوحدة وفكرة الاقليم

اما الاولى فكانت ولا تزال رسالة الشعر العربي منذ عهد الدستور (١٩٠٨) . وقد راينا كيف برزت بعد الثورة ، وعبثاً جاول دعاة التقسيم اماتها . فهي عند السواد الاعظم من عرب الشرق الادنى رسالة المجد القديم .

فلنقف قليلاً لنرى هذه الرسالة وكيف التفت العرب بعد يقظتهم الحديثة الى مجادهم الغابرة .

\*\*\*

## ❦ لفتة الادب الى ماضي العرب ❦

من يراجع الادب العربي في عهوده السالفة لا يرى فيه من شأن يذكر للوقوفات التاريخية التي تلبس الماضي بروود الجلال وتدوّن مآثر الاسلاف باقلام الفخار . خذ مثلاً ما جمعه القرشي في كتابه « جمهرة اشعار العرب » فهو يضم اشهر الشعر العربي القديم من معلقات ومجمرات ومذهبات ومنتقيات وملحقات ومشوبات ومراث ومع ذلك لا تجد بينها ما يدل على اهتمام العرب بهذا النوع من الادب . ويصدق هذا الحكم على حماسة ابي تمام وسائر المجموعات الشعرية القديمة والمولدة . ولا نستطيع ان نعدّ التفاخر بالاجداد في مثل شعر ابن كلثوم او الفرزدق واضراهما من باب الوقفات التاريخية بالمعنى الذي نفهمه الآن فما ذلك الا مباهاة شخصية او قبلية ليس فيها ما يدل على شعور عام يحدو الشاعر الى التغني باجداد الغابرين ووصف ابطالهم ومآتهم . وقد يجوز ان نستثني من هذا الحكم العام بعض المنظومات القليلة كسينية البحتري التي يصف فيها ابوان كسرى وبنوّه « بعجائب قوم لا يشاب البيان فيهم بلبس » . او بعض المراثي القومية كقصيدة ابن عبدون في بني الافطس التي مطلعها - « الدهر يفجع بعد العين بالاثر » وقصيدة ابي البقاء الرندي التي يندب فيها الملك الاسلامي بالاندلس ومطلعها - « لكل شيء اذا ما تم نقصان » . اما التواريخ المنظومة امثال ارجوزة ابي طالب عبد الجبار التي تسرد في ٥٢ بيتاً تاريخ الخلفاء من راشدين وأمويين وعباسيين واندلسيين<sup>(١)</sup> فليست الا سرداً عادياً للحوادث ولا يراد به استعراض الاجاد القومية السالفة او التعبير عن روح الأمة وامانيها الكامنة .

وقد كان من المتوقع ان ينشأ في العهود المختلفة التي تلت عصر الفتوح ما يدل على تأثر الادب باعمال الفاتحين ومآتي الابطال ولكننا قلما نعتز من ذلك على شيء جدير بالذكر حتى ان الحركة الشعبوية التي ظهرت في اوائل العصر العباسي وكان الباعث اليها تلك المشادة العنصرية بين الفرس والعرب لم تترك لنا من افوال المدافعين عن العرب الا بعض شعر ونثر لا يستحق ان يعدّ من باب الوقفات التاريخية . وكذلك قل في تعصّب المتنبي للعرب وذمه للعجم . فهو مع كونه عربياً صمياً لم يخرج عن نطاقه

الشخصي المحدود الى نطاق القومية الواسع ولم يصرف شعره عن امراء او كهراء يسبغ عليهم حلل المديح او خصوم وحساد يسلقهم بالسنة الهجاء الى تعظيم امته بتعظيم تاريخها والتنويه باجادها . وذلك عين ما نلحظه في كل عصورنا الادبية حتى نهضتنا الحاضرة . وهذه الظاهرة التاريخية اسباب منها - ان العرب سابقاً لم يهتموا الا للعصية القبلية ولم تكن القومية عندهم ولاسيا بعد العصر الاموي متميزة تمام التميز عن الدين . وقد اصاب احد الباحثين اذ قال « ان هذا الفن ( الشعر البطولي القومي ) يحتاج الى ممارسة وتفرغ وطول معاناة ومثل ذلك لم يكن متهيئاً لادباء العربية الذين كانوا اميل الى تقليد من سبقهم<sup>(١)</sup> . اما في هذا العصر فقد تغيرت الحال فان التطورات السياسية والاجتماعية قد جعلتهم يشعرون بكبانهم ففتحوا اعينهم ورأوا سوء حالهم ازاء الامم الاخرى . وهكذا اخذوا منذ اوائل هذا القرن ينفضون عنهم غبار الهوان . وساعدتهم الحرب العالمية الاولى فأصبح لهم دول مستقلة اسماً او فعلاً فكان من الطبيعي ان يلتفتوا الى ماضيهم القديم - الى عهد الفتوح والملك وما تلاه من الازدهار العلمي - تعظيماً لقوميّتهم وارهافاً لهممهم وحفزاً لابنائهم على السير في سبيل اسلافهم . وفي ذلك يقول علي مصطفى مشرفة<sup>(٢)</sup> .

« فكما ان الاوروبيين عندما افاقوا من قرونهم الوسطى عمدوا الى احياء ماضيهم فبعثوا الثقافة الاغريقية وجعلوا منها اساساً لنهضتهم كذلك نحن في الشرق قد هدانا وحي السليقة الى منابع عظمتنا فرجعنا الى ماضينا ليكون قاعدة لصرح تقدمنا » .  
ويقول فؤاد صروف<sup>(٣)</sup>

« ان الاساس في النهضة الصحيحة هو الاحساس بالكرامة . والاحساس بالكرامة يستيقظ ويستعز بالانساب الى آباء واجداد نفخر بهم وماض نباهى به واجاد نغنيها » .  
وهذا الالتفات لا ينحصر في قطر واحد بل هو عام وله ظواهر شتى اهمها ما يلي :

❖ ١ - ذكرى النوابع والابطال ❖ وقد وضع في هذا الباب نثراً عدد كبير من الكتب والرسائل وكلها ترمي الى تخليد عظماء الامة العربية بعرض تاريخهم

(١) راجع فصلا لفخري ابو السعود في اسباب خلو الشعر العربي القديم من البطولة - ارساله

(٢) المقتطف ١٠٠ - ٢٢٨

(٣) المقتطف ١٠٠ - ٢٠٣

(٤) ٢٠١ - ٥

ووقائعهم وآثارهم سواء كانوا من رجال السياسة والحرب والادارة ام من رجال العلم والادب والدين<sup>(١)</sup>. وهو باب واسع جداً وقد طرقه القدماء وخلفوا لنا كثيراً من التراجم والدراسات على انهم لم يعنوا عناية المحدثين بالتمحيص التاريخي والنقد العلمي والتحليل النفسي ولم يهدفوا مثلهم الى تمجيد التاريخ العربي واتخاذ وسيلة لتحسيس الجيل الحاضر ورفع نظاره الى المثل القومية العليا. وقد يتجلى ذلك على اتمه في الشعر الحديث واليك بعض الامثلة وهي 'قل' من كثر -

﴿عمرية حافظ ابرهيم﴾ وهي قصيدة في نحو ١٩٠ بيتاً يعرض فيها الشاعر مناقب الفاروق ومآثره. ومطلعها :

« حسب القوافي وحبي حين ألقيا اني الى ساحة الفاروق أهديا »

ومنها في وصف الدولة الاسلامية بعد مقتل عمر -

فاصبحت دولة الاسلام حائرة تشكو الوجيعه لما مات حاميا  
مضى وخلّفها كالطود راسخة وزان بالعدل والتقوى رواسيا  
تنبو المعاول عنها وهي قائمة والهادمون كثير في نواحيها  
واها على دولة بالامس قد ملأت جوانب الشرق رغداً من اياها

وبعد ان يعدّد اعمال الفاروق ومكارمه يختم القصيدة بقوله -

هذي مناقبه في عهد دولته للشاهدين وللأعقاب احكيها  
لعل في امّة الاسلام نابتة تجلو لحاضرها مرآة ماضيها  
حتى ترى بعض ما شادت اوائلها من الصروح وما عاناه بانيتها  
وحسبها ان ترى ما كان من عمر حتى ينبّه منها عين غافيتها

وعلى غرار العمرية بضع منظومات في ابطال الاسلام الأول كعلوية محمد عبد المطلب<sup>(٢)</sup> وبكرية عبد الحليم المصري<sup>(٣)</sup> وخالدية عمر ابو ريشة<sup>(٤)</sup> واشباهها .

(١) راجع من ذلك كتاب اشهر شاهير الاسلام لروحي الخالدي. وروايات زيدان وكتاب حاضر الاندلس وغايرها لمحمد كرد علي وكتاب تراث العرب العلمي لفدري طوقان وسلسلة مقالات آثار العرب العلمية للمؤلف في الهلال مج ٣٠ .

(٢) ديوانه والمفتطف ٥٥-٢٩١ (٣) المفتطف ٥٣-١ (٤) ديوانه (شعر) ٢٣١

ومن هذا الشعر البطولي المشيد باجماد الماضي ما قيل في عبد الرحمن الداخل وهو الامير الاموي الذي نجا من سيف العباسيين ثم تمكن من دخول الاندلس وانشاء دولة اموية هناك . وقد نظم فيه احمد شوقي موشعاً عنوانه صقر قريش فذكر قصة نجاته ورحيله الى افريقيا ثم ما كان من امره في الاندلس وكذلك فعل خير الدين الزركلي<sup>(١)</sup> وسواه .

وتمن جعل في مصاف الابطال زنوبيا ملكة تدمر التي اشتهرت ببأسها حتى أصبحت موضوعاً للشعر والنثر<sup>(٢)</sup> . وقد أولع ادبنا مؤخراً بالذكريات الألفيّة لبعض نوابغ الرجال كالمتنبي والمعرّي وما قيل في هذين الشاعرين نثراً وشعراً لا يقلّ عن عدّة مجلّدات<sup>(٣)</sup> . ومن هذا القبيل تخصيص بعض المجلّات اعداداً خاصة لذكرى بعض المشاهير وسوى ذلك بما نكتفي بالإشارة اليه

﴿ ٢ - المأثور من وقائع العرب واخبارهم ﴾ ولا نقصد بذلك ما دونه المؤرخون من حوادث تاريخية بل ما يعكسه الادب من روح تلك الحوادث وما يقصّه علينا من مستملح النوادر . وقد نقل لنا الرواة عنهم كثيراً من الاخبار التي تبرز فيها مكارم الاخلاق من شجاعة ووفاء وعدل وحكم وكرم ونزاهة كالذي يتناقلونه عن حاتم طيء وكعب بن مامه والسموأل ومعن والاحنف وما يعزونه الى بعض الخلفاء والوزراء والعظماء من اخبار وطرائف تجدها متفرقة في كتب الادب كالآغاني والعقد والفرج بعد الشدة وثمرات الاوراق ومصارع العشاق والمستطرف وسيرة عنترة وقصص الف ليلة وليلة وسواها . هذا فضلاً عن الوقائع التاريخية التي تشير الى ما بلغوه من عزّ وسؤدد . فلا غرابة ان يجد فيها الادب الحديث مصدر وحي لكثير من الاحاديث الممتعة التي تعيد لنا العهد الأولى مصوّرة بازهى الالوان وتعكس لنا مجامد الاسلاف في ذلك الزمان . وقد اتسع لمثل هذه الاحاديث ادبنا المنشور وخصوصاً بابا الترسل والخطابة واصبح معروفاً شائعاً حتى لا حاجة للتدليل عليه . وعليه فنسكتفي ببعض الامثلة الشعرية - ومنها

﴿ قصّة خولة بنت الازور واخيها ضرار ﴾ وهي قصيدة لشبلي ملاط في ٩٥

(١) راجع ديوانه (٢) راجع مجلة الكلية ٩ - ٩١ ومجلة المورد ٨ وديوان الملاط - زنوبيا

(٣) راجع في المعري المهرجان الالفى الذي نشره المجمع العلمي (المري) بدمشق .

بيتاً تصف بطولة الفارس العربي ضرار بن الازور واخته في حادثة جرت لها عند فتح دمشق على يد خالد بن الوليد . ومطلعها<sup>(١)</sup> -

ادموع خولة ام عقيب الوادي ايام نادى للجهاد منادي  
وترى خولة اخاها وهو يتأهب للحرب فتبكي فرحاً ثم يأخذان بالحديث عن الجهاد  
فيقول ضرار متحمساً

يا خول ان ابي وجدّي استشهدا قبلي على مرأى النبي الهادي  
وانا على آثار من درجوا ومن سعدوا من الآباء والاجداد  
ويجري في حديثه واصفاً بطولة المجاهدين . فتجيبه خولة متهاللة -

بوركت يا ابن ابي وقُدّس والد يُحييه مثل ضرار في الاولاد  
ثم تشتعل نيران القتال فيستبسل ضرار في الهجوم على حصن للاعداء ولكنّ  
الاقدار تشاء ان يجرح جرحاً بليغاً فيتمكن الاعداء منه ويأسرونه . ولما بلغ خولة  
خبر اسره انتقدت نار الحميّة في صدرها وحملت وهي متنكرة بزي فارس من الفرسان  
حملة شديدة على الاعداء . ولما رأى العرب هذه الحماسة منها انتقدت حماسهم فاغاروا  
معهما وهكذا رجموا المعركة وانقذوا اخاها من الاسر . يقول الشاعر في ختامها -

ومشى الغزاة الفاتحون ودوّخوا ما دوّخوا من امة وبلاذ  
قل للألى عزّت بهم اوطانهم وتسوّدوا من طارف وتلاذ  
كونوا ضراراً في الجهاد وخولة ان الجدود تعيش في الاحفاد

﴿ واقعة اليرموك ﴾ وعلى ذكر خالد بن الوليد وما يؤثر من وقائعه نذكر هنا  
المعركة الفاصلة التي حدثت بين العرب والروم على هذا النهر الصغير الذي يصبّ في  
الاردن قرب طبريا . وهي موضوع لكثير من الفخر القومي او التاريخي وما قيل  
فيها « وقفة على اليرموك » أو لها<sup>(٢)</sup> -

على اليرموك قف واقرا السلاما وكلمته اذا فهم الكلاما

(١) ديوان الملائك ٢٨٣

(٢) للمؤلف نجدها في المورد الصافي ٩ - ٢٠١ والهلل ٢٩ - ٢٦٥ والمختارات (السائرة) ١٢٩

وبعد ان يصف الناظم ذلك الوادي يخاطب عرب اليوم مذكراً ايامهم بمجدهم القديم فيقول :

ألا هبوا احذثكم بمجدٍ لكم غشي الجزيرة والشاما  
الى اليرموك ان تبغوا المعالي وفوق ضفافه فاجثو احتراماً  
هنا الاسلام ضاء له حسامٌ غداة استلّ خالده الحساما  
وهبّ ابو عبيدةً مثلَ ليثٍ يجرّ وراءه الموتَ الزؤاما  
فاصلى الروم حرباً ايّ حربٍ وفلّ بعزمه الجيش اللّهاما  
وسار على روابي الشام يخطو تحرّ له الرّبي هاماً فهاما

وينتقل من وصف المعركة وما احرزه الفاتحون الى حال العرب اليوم وما اصابهم من تأخر وهوان . ويختم القصيدة بالرجاء ان نجدهم سيشرق من جديد فيعود اليهم ما خسروه من عزّ وما تمتعوا به قبلاً من سلطان .

﴿ مصرع الامين ﴾ ومن الحوادث التاريخية تلك الحرب التي نشبت بين ابني الرشيد الامين والمأمون والتي انتهت بقتل الاول وطغيان النفوذ الفارسي في الدولة العبّاسية . والى ذلك تشير قصيدة للدكتور رشيد الحناوي مطلعها<sup>(١)</sup> - « لمن القباب الباسقان ذراها » وفيها يتحدث عن الخلافة العربيّة وعن مجد العرب منذ ظهور الاسلام الى سقوط عرش الامين ومن قوله -

كعبُ القرون تناولته ساعةٌ ضلّت مسالكها وطاش هداها  
هذي جناية هاشمٍ في ملكها غفر الاله لهاشمٍ عُقباهَا  
وهو يرى ان مصرع الامين كان فوزاً للفرس ووبالاً على العرب -

ما إن رأت عيني كيومك مصرعاً بحق العروبة واستباح حماها  
وازاح عن عرش النبيّ متوجّجاً من اهله واحلّه كسراها  
ويدعو في ختامها الى عصيّة قومية اذ الملك لا يقوم بدونها . ولا جدوى من الاعتماد على الدول القوية -

ما الاقوياء وان أروك ليانةً الا ذئاب تستلين شياها  
فاذا اصابك منك موضع رقةٍ دلفت اليك بشرّها واذاها



﴿ سقوط غرناطة ﴾ مأساة قومية مشهورة . وقد تركت أثراً عميقاً في الادب العربي من ذلك قول شوقي في قصيدته الاندلسية التي مطلعها « اختلاف النهار والليل بنسي » حيث يصف عزّها الغابر وكيف جار عليها الزمان فسقطت في يد الاعداء واصبح قصرها الشهير المعروف، بالحمراء اطلالاً خاوية لا تزال الى الآن شاهدة بما كان لاصحابها بني نصر من مجد وعظمة . وفي القصيدة ينحي بالاثمة على ملكها ابي عبد الله لسياسته التي اذت الى ضياع مجده ومجد آباءه -

مشت الحادثات في عُرف الحمراء مشي النعمي في دار عرس  
هتكت عزّة الحجاب وفشت سدة الباب من سيمير وانس  
ومفاتيحها مقاليد ملك باعها الوارث المضيع ببخس  
رُبّ بانٍ لهادم وجموعٍ لمشتٍ ومحسنٍ لمخسٍ

وفي الحمراء وغير الحمراء من الوقائع المؤثرة والحوادث الهامة اقوال كثيرة<sup>(١)</sup> ومثلها ما نقلوه من نوادرهم الدالة على مكارم اخلاقهم ونجوتهم منها بقصيدة لالباس فياض موضوعها « الوفاء »<sup>(٢)</sup>. وهي تدور على ما جرى للأمير الأموي ابراهيم بن سليمان بن عبد الملك يوم فرّ من سيف السفّاح العباسي واحتمى عند رجل كان الامير قد قتل والده وهو لا يعرف الرجل ولا الرجل يعرفه . يبدأها بقوله : -

رَبّة الشعر عن رجال الوفاءِ حَدَّثِينَا وابغني جميل الثناءِ  
حَدَّثِينَا عن قومنا العربِ اهل المجدِ قَدْماً والهمّة القعساءِ  
عن رعاةٍ جاءوا عِراءَ من القفر فعازوا ملكاً على الدنياءِ  
رفعتهم خِلالهم فَنَسَامُوا ثم هَانُوا من بعد ذاك العلاءِ  
وبناءُ الاخلاقِ اعلى واقوى من بناءِ المعافلِ السَّمَاءِ

ويتقدّم من هنا الى ذكر ما كان بين الامويين والعباسيين والى فرار الامير ابراهيم وانتحائه جانب المدينة حيث يدفعه الخوف الى منزل يراه امامه فيقول له رب المنزل من انت فيجيب انني عائد مستجير من اعداء يطاردوني فيرحّب به دون ان

(١) راجع منها قصيدة « على اطلال الحمراء » في الصلال ٣٠ - ٢٣ وقصيدة لشفيق العلوف في المقتطف ٨٠ - ١٣٧ . والاباظة الاسلامية لاحمد محرم في الرسالة ٨ - ٢٠٤ . وثورة بدر لحمود اسماعيل في الرسالة ٢ - ٢٠٥٠ . ويوم حطين لعبد المحسن الفاطمي في ديوانه (٢) ديوانه . والمورد الصافي ٩ - ١٠٨

يسأله عن اسمه ويفرّد له حجرة يقيم فيها على الرحب والسعة . وتمضي بضعة ايام والضيف على هذه الحال على انه يلحظ ان مضيفه يخرج كل صباح من المنزل خروج مستعد لنزال ثم يعود عند المساء وعلى وجهه امارة الكأبة . فيسأله يوماً عن ذلك فيقول ان لي ثاراً عند شخص اسمه الامير ابراهيم بن سليمان فانا اخرج كل يوم باحثاً عنه والى الان لم اظفر ببغيتي من قاتل والدي . اما الامير -

فلو انّ الجبال دكت عليه لم ترعه كهذه الأنبياء  
عجباً ساقه القضاء الى بيت الدّ الخُصوم والاعداء

فيلبث هنيئة من الزمن واجماً من هول ما يسمع ثم يذكر ما لقيه من كرم مضيفه فيضبط نفسه ويقول للرجل - انا ادلك على خصك فاني اعرف مكانه . فيدهش الرجل ويقول منفعلاً من هو ؟ فيجيبه انا هو انا قاتل والدك فاثار مني واسفك بعدلٍ دمائي . ويظنّ صاحب المنزل لاوّل وهلة ان ضيفه قد جنّ . ولكنته ما كاد يتحقق صدق قوله حتى ثارت في نفسه عاطفتان عنيفتان عاطفة الثأر لوالده وعاطفة الواجب لضيفه . وبعد جهاد نفسي شديد تتغلب الثانية على الاولى -

قال : كن من تشاء اترك ضيفي وهو عندي من اقدس الاشياء

لست والله خافراً ذمتي معك وقد نلت من طعامي ومائي

ويختم الشاعر قصيدته مباهياً بمحامد الاسلاف فيقول -

تلك آباؤنا وذاك تراث المجد منهم باقٍ الى الانبياء  
شرفٌ في سماحةٍ ، وذكاءٌ في وقارٍ ، وقدرةٌ في وفاءٍ

٣ - ذكرى الامصار والاثار ❀ وهي تدخل في بابين - ما يرجع الى العهود الاسلامية وما يرجع الى عهود سابقة . والقول فيها واسع . ومن الاول قصيدة لجبل الزهاوي في « المستنصرية » بالعراق وكانت قبلاً تفاخر بمعهدا العلمي وهو الان طول دراسة . يقول الشاعر - واصفاً ما رآه منها -

وقفتُ على المستنصرية باكباً ربوعاً بها للعلم امست خواليا

تهبّ رياح الصيف في حُجراتها فتلبسها ثوباً من النقع هايبا  
وتسعى على الجدران منها عناكبٌ تُجدّ لها في ما تدعى ميانبا

ثم يسأل تلك الدار عن عهدها الماضي ورجالها الاعلام وكيف انقلبت بها الحال  
بعد ان كانت شمساً مضيئة في سماء الشرق وكان الغرب غارقاً في لجة الظلام .

فقالَت أَلَمّتْ حادثاتٌ عظيمةٌ وجرتْ على هذي البلاد الدواهب  
هناك اضمحلت دولةٌ عربيةٌ بها كانت الايام ترفع شأنبا  
فكابدتْ منهنّ الصروف نوازلاً وقاسيتْ منهنّ الخطوب عواديا

ومن ذلك ايضاً قصيدة لمحمود الجبوري موضوعها بين قصور المتوكل<sup>(١)</sup> . وقصيدة  
لحسين وصفي رضا<sup>(٢)</sup> وقصيدة الرصافي (سوء المنقلب)<sup>(٣)</sup>

واكثر ما يذكر من الامصار الاسلامية الحواضر التي زهت في الشرق والغرب  
كدمشق وبغداد وقرطبة واشبيلية وغرناطة والقيروان وسواها . ولا غرابة فان  
هذه الحواضر تمثل عهوداً ذات مجد لا يُنسى في تاريخ الاسلام وفي طبيعتها بغداد  
التي تغنى بماضيها عدد من الشعراء<sup>(٤)</sup> .

ولم يكن اهتمام الادب الحديث بالاثار الاسلامية ليحول دون اهتمامه بما سبق  
الاسلام وهذا قد يكون عربياً او يمتّ الى العرب بصلة ما كندمر ومأرب وبيتوا  
وصنعاء وسواها . او قد يكون غير عربي كعبلبك وصور والمدائن والاقصر وانطاكية  
وغيرها من خواضر الامم السالفة التي سنشير اليها بعد .

﴿ حضارة العرب ومدنيتهم في التاريخ ﴾ - اي ما قاموا به من جليل الاعمال  
وما خدموا به العمران البشري كقول اديب اسحق واصفاً دولة العرب وفتوحها<sup>(٥)</sup> -  
« شغلة سرت من الحجاز فانارت الشام والعراقيين والمغرب والهند . واتصلت باطراف  
الفرنجية فملأتها نوراً وناراً . فهي بنورها تستضيء ومن نارها تنقبس » . ثم يذكر  
فتوح العرب فيقول على طريقته الخطابية - « فسارت اسود رجالها على طيور خيولها

(٢) المقتبس ١ - ٩٣٥

(١) راجعها في مجلة الكتاب ٢ - ٣

(٦) مثل علي الجارم ديوانه ١ - ١٣٩ وإيليا ابو ماضي

(٣) المقتبس ٢ - ٢١٩

(٥) راجع مقاله في الدرر ٢٠٠

المقتطف ٥٥ - ٣٦٦

تطوي الصحاري وتقطع الفدافد حتى نطحت بروقي عزمها شرفات الايوان ونسرت  
من الشرق نسر الرومان، ونشرت على مصر اعلامها، وضربت في الاندلس خيامها .  
وفي النثر الحديث كثير من مثل هذا الالتفات الى ماضي العرب وكثيراً ما يقتون  
بمقابلة الماضي بالحاضر والاهابة بعرب اليوم الى النهوض من حالة الهوان وتلافي امرهم  
قبل فوات الاوان . ولا يقصّر الشعر عن النثر في ذلك . ومن امثله قصيدة لحبيب  
العبيدي موضوعها « العرب الكرام » وهي تقع في ١٤٠ بيتاً كلها مفاخرة بفتوح  
العرب تحت لواء الاسلام وخدمتهم للحضارة والعمران . كقوله (١) : —

بدا النور من بطحاء مكة ساطعاً      فضاءت به في ارض يثرب دُورها  
فمزّق ايواناً لكسرى مشيداً      واخذ نيراناً شديداً زفيرها  
واجفلّ منه قيصر فوق عرشه      ودلت له بُصرى ودكت قصورها

وبعد ان يعدّد الاقاليم التي افتتحوها في الشرق والغرب يقول مفاخراً بحضارتهم

وكلّ بلاد قد وطئنا صعيدها      غدون رياضاً زاهيات زهورها  
وانبتن احساناً وعدلاً وحكمةً      وعلماً وفضلاً زاخرات بحورها  
ومن هذا الباب قصيدة لعمر ابو ريشه موضوعها « لمحّة » ومطلعها (٢) —

أوقفي الركب يارمال البيدر      إنه تاه في مداك البعيد  
وفيهما يصف بزوغ الوحي النبويّ في سماء الصحراء ثم يذكر ما كان بين النبي  
وقريش وكيف توطد الاسلام في الجزيرة فدفع العرب الى الفتح  
وقفت موجة الهدى تغسل الشّرك وتروي النفوس بالتوحيد  
فرمت بالكتائب الحرس روما      وبابطالها الغزاة الصيد  
وضفاف اليرموك تُرمل منها      زفرات الحداة لابن الوليد  
وامّة مثل هذه عرف لها التاريخ الوقائع الغرّ في فارس وغير فارس وانتشرت  
حضارتها في الشرق والغرب هي عند الشاعر

امّة يعربية تركت في مسمع الدهر آية التمجيد  
ولكن ابناءها لم يطل بهم الحال حتى تنابدوا فضعفوا وذّلوا —

(١) راجع القصيدة في كتاب الادب العمري في العراق (بطي) ١ - ١٣٥

(٢) راجعها في ديوانه الاول ١٢٩

وخبث نارهم وُصِبْ عليهم عاصفات التعذيب والتنكيد  
وانتهت سيرة الجدود الينا فجررنا القيود إثر القيود  
والتفتنا فلم نجد غير ملك مزقه اصابع التبيد  
وهنا يلتفت الى عروس الرمال وشمس المجد القديم طالبا منها ان توسل اشعتها  
لعل القوم يستيقظون من سباتهم وينهضون من كبوتهم .

ويقف شاعر آخر على « طاق كسرى وهو من آثار الفرس في المدائن » فيناشده  
ان يحدث العرب عن مجدهم القديم فيقول من قصيدة<sup>(١)</sup> -

يا طاقَ كسرى ويا بُقيا مدائنه    وقد طوى الدهر عنه كل ما نشرنا  
خبر بني يعرب عن مجدهم وأعد    على المسامع من تاريخهم سُورا  
هذا المجد الذي اصبح اطلالا باليةً « نستمد القوى من وحي ذكرها<sup>(٢)</sup> » .

وقد ترى من المشيدين بتاريخ العرب وحضارتهم القديمة من يندد بالحضارة الحديثة  
الآتية من الغرب وهو يخشى ان تغطي على الشرق وتجرف شبابه في نيارها . وفي  
مقدمة هؤلاء مصطفى لطفى المنفلوطي الذي يدعوا الى تنشئة الجيل الجديد تنشئة  
شرقية عربية فيقول<sup>(٣)</sup> - « ان دعوانا الى الحضارة فلنضرب لهم مثلاً بحضارة بغداد  
وقرطبه وثيبة وفينيقيا لا بباريس وروما وسويسرة ونيويورك . وان دعوانا الى  
مكرمة فلنتلّ عليهم آيات الكتب المنزلة واقوال انبياء الشرق وحكمائه لا آيات  
روسو وباكون ونيوتون وسبنسر . وان دعوانا الى حرب فقي تاريخ خالد بن الوليد  
وسعد بن ابي وقاص وموسى بن نصير وصلاح الدين ما يغنينا عن تاريخ نابوليون  
وولنجتون وواشنطن ونلسون وبلوخر . وفي وقائع القادسية وعمورية وافريقيا  
والحروب الصليبية ما يغنينا عن وقائع واترلو وترافلغار واستوليتز والسبعين » . ومثل  
المنفلوطي عدد غير قليل من الذين يقفون موقف الحذر من حضارة الغرب ويدعون  
النشئة الجديدة الى الاقتداء بأسلافهم واتخاذ السبل التي سلكوها نحو اهدافهم .

قد يقال ان الادب العربي الحديث لم يقف عند حد المفاخرة باجداد العرب فان

(١) مجلة الاعتدال ( النجف ) مج ٦ ع ٣

(٢) راجع ايضاً قصيدة « على طال » لمحمود غنيم في الرسالة ٣ - ٥٩١

(٣) راجع مق له « المدينة الفريية » في النظرات

له لفتات الى امم اخرى سبقت العرب وتركّت آثار حضارتها في الشرق العربي .  
ومنهم مثلاً الفينيقيون الذين زهوا على ضفاف بحر الروم الشرقية وقد عرفوا بعمرانهم  
التجاري والصناعي وما قدّموه للعالم من اسباب الرقي . والى ذلك يشير خليل المطران  
اذ يقول من قصيدة :

اهل فينيقيا سلام عليكم يوم تفتى بقية الادهار  
لكم الارض خالدين عليها بعظيم الاعمال والآثار

ومثله سليم حيدر في قصيدته « بعلبك »<sup>(١)</sup>  
وفي الفينيقيين ومآثرهم يلهج عدد من ادباء لبنان في هذا العصر

ومنهم قدماء المصريين الذين كانوا من اعظم الامم القديمة ومن واضعي اسس  
العمران البشري فلا عجب ان يقول فيهم شاعر مصر :

مشت بمنارهم في الارض روما ومن انوارهم قبست ائتنا

ولهذا الشاعر وسواه قول كثير فيهم وفي مآثرهم<sup>(٢)</sup>.

وهناك اليونان والرومان وآثارهم منتشرة في الشرق العربي - بقايا هياكل  
وقصور وملاعب وطرق وتماثيل وهي تنعكس لنا في الادب الحديث بصور شتى من  
الارصاف والذكريات<sup>(٣)</sup>.

ومن قبيل الالتفات التاريخي استبحاء ما جاء في الاخبار المقدسة والاساطير القديمة  
وليس ذلك بالشئ القليل في ادبنا الحديث<sup>(٤)</sup>.

\*\*\*

(١) راجعها في الاديب (بيروت) ج ٦

(٢) راجع لاحد شوقي في ديوانه - قصائده « ابحا النيل » و « قفي يا أخت يوشع » و « درجت  
على الكثر السنون » ، ولمحمد الهراوي - « ابو الهول » في مجموعة احسن ما كتبت ( دار  
الجلال ) ١٦١ ، ولعبد الرحمن شكري - قصيدة في الرسالة ( مصر ) ( العدد ١٥٩ ) ، ووقفه للمطران  
- المقتطف ٦٤ - ١٢٩ ، ووقفه لراجي الراعي - المقتطف ٨٧ - ٥٦٥

(٣) راجع قصيدة « على شلالات دفتي » في مجلة الكلية ١٥ - ٢٨٥ والمورد (صافي) ١٤ - ١٢٥

(٤) راجع من ذلك - مريم المجديّة وقدموس وعشترت لسعيد غنّ ، وشمشون لالاس  
ابوشبكة في ديوانه افاعي الفردوس ، وسدوم له في المكشوف ٢ ع ٧٢ ، ومن اعماق الجبل  
لصلاح لبكي ، والبعث الاول لملي محمود طه (ديوانه) ، وطوفان نوح لعبد اللطيف النشار (الجلال  
١٤١٨ - ٤٠ ، والرذيلة المهودة لرثيف الحوري البرق ٣٤٢٩ ، والفداء لاجد طرابلسي - الرسالة  
٥ - ٥٦٢ ، والام لحايل الهنداوي - رسالة ٣ - ١٤٢٤ .

قد يقال كل ذلك - وهو لا شك صحيح : على ان الروح السائدة في الادب العصري الحديث هي المستمدة من تاريخ العرب وحضارة لغتهم . هي تلك المباهية بآتي ابحادهم والداعية الى تأخيرهم وتضامن اقاليمهم . ولقد رأينا كيف تقلبت بها منذ بدء النهضة شتى الاحوال السياسية وكيف صارتها النعرات الاقليمية حتى كادت تختبئ او تموت . على انها ما زالت حية في الادب ولم تعدم في خلال محنتها ما يوقد نارها ويشبّ اوارها . ومن ذلك قضية فلسطين وما اصاب الحسين بن علي وابنه علي ثم موت فيصل الاول وابنه غازي وغير ذلك من الحوادث الهامة . اضع الى ذلك ما أحدثته وطأة الانتداب من ثورات وما نشأ في نفوس العرب بعد الاستقلال من مطامع وآمال<sup>(١)</sup> .

فلسطين تعدّ قضية قومية عامّة ولذا نرى الادب العربي في كل قطر يعطف عليها ويهتم بمصيرها . ولو جمعت الاقوال التي قيلت فيها منذ بدء الانتداب البريطاني في هذا العهد للمأت عدّة مجلدات . ومن اراد ان يعرف الشعور الادبي العام فليطالع ما نظمه الادباء في هذا الموضوع وهو كثير لا يحصى<sup>(٢)</sup> .

ولعلّ شعر المرحوم ابراهيم طوقان ( نابلس ) اصدق مرآة لحال فلسطين السياسية والاقتصادية وهي في طور الانتداب . ونفثاته الوطنية الحارّة منشورة في مختلف الصحف كالبرق وفلسطين والدفاع والمعرض والجامعة الاسلامية وسواها<sup>(٣)</sup> .

والذي يشاهد ما آلت اليه القضية الفلسطينية وما دهمى ابناء العربية في البلاد المقدسة يرى صدق ما تنبأ به هذا الشاعر الشاب اذ قال من ابيات له -  
يا حسرتا ماذا دهمى اهل الحمى فالعيش ذلّ والمصير بوار

(١) لمعرفة ما نشأ عن ضغط الانتداب من تقوية الدعوة الى الجامعة العربية ، راجع مقال

عبدالرحمن شهنذر . الهلال ٤١ - ٢٥١

(٢) راجع مثلاً التالية : قصيدة مهدي الجواهري « فلسطين الدامية » ديوانه (١٩٣٥)

١٢٦ . قصيدة بشارة الخوري « جهاد الجبارة » الرسالة مصر ٤ - ١٤٧٢ قصيدة (اليعقوبي

« النظرات السبع » مطبوعة على حدة . قصيدة امين ناصر الدين في ديوانه الاطعام ١٩٢ .

قصيدة محمود حسن اسماعيل في « هكذا اغني » ٢٣٣ . قصيدة محبوب الشرتوني ديوانه ١٢٦

قصيدة الشاعر القروي « وعد بلقور » في الاعاصير . مجموعة الفلستينيات لجمعية الرابطة العلمية في النجف .

(٣) وقد جمعت شقيقته شعره ونشرته في ديوان خاص

ارابت اي كرامة كانت لهم واليوم كيف الى الالهانة صاروا

\*\*\*

اما الحسين ملك الحجاز ومُعلن الثورة العربيّة ففي انتقاله الى قبرص ،  
عقب الحرب السعودية الهاشمية ثم في موته عبّر حرّكت العواطف القومية وأثارت  
الشعور الادبي العام فتأجج في كثير من النثر والشعر . واليك بعض القصائد التي  
قيلت فيه وهي قلّ من كثير ، بل وشل من بحر

فلشوقي مرثاته : -

لك في الارض والسماء مآتم قام فيها ابو الملائك هاشم

ولناصر الدين : -

ابا الملوك اجب ابناءك النجبا فقد دعوك وقم فاستقبل العربا

ولفؤاد الخطيب : -

هي المواكب فاشهد كيف تبندر كالسيل مصطخب التيار ينحدر

اوفت تودّع جثمان الذي نُعيت الى الجزيرة في اكفانه مضر

ولشفيق جبيري : -

تلکم قريش وما جعّت عواليها على الحطيم ولم تنشف بمواضيا

من ذاكر في ظلال البيت ثورتها والعهد غير بعيد عن لياليها

ولابراهيم طوقان - ذكرى ثورة الحسين : -

اطلّقي ذاك العيارا قدك ضيماً واصطبارا

يُطلب العز ابتدارا يدرك المجد اقتسارا

ولاسكندر الحوري البيتجالي : -- حيّ البطولة والعلی

ولبدر الدين حامد - في خلافته

تاج مجد الخلافة انتظما فوق رأس الخليفة العربي

كم لبثنا السنين في وجل وذرفنا مدامع الحرب

وله في منفاه الى قبرس : -

اسرفت فيما جثته يا زمان فما لعهدٍ منك يوماً امان



والجواهري في ذلك : -

هي الحياة باحلاءٍ وامرار تمضي شعاعاً كزند القادح الواري  
وله مرجحاً بالحسين الى العراق : -

ارى الشعب في اسواقه كالمعلق لما حدثتوه عنك يرجو ويتقي

وشبه بما قيل في الحسين ما قيل في ابنه الملك علي فقد نظمت فيه مرات وطنية  
تشف عن شعور العرب في مختلف الامصار نذكر منها هنا قصيدة شبلي ملاط : -

امن جرح على جرح دميّ الام يصاب بيت الهاشمي  
فما كاد الحسين يغيب حتى تهاوت شهب فيصل والعلي

على ان الفجيرة الكبرى عند ادباء العرب كانت موت فيصل وقد اقيمت له ماتم  
في مختلف الاقطار العربية وفي المهاجر . والاقوال فيه كثيرة فهو عند الجميع بطل  
العروبة وحامل لوائها . واليك على سبيل التمثيل بعض ما وصلنا من المراثي فيه : -

لجميل الزهاوي - فجع المشرقين خطبٌ جليلٌ وعري المغربين حزن طويل  
لامين الريحاني - حلق النسر في الفضاء بعيداً - ( وهي قطعة من الشعر المنشور )  
لبشاره الحوري - لبست بعدك السواد العواصم واستقلت لك الدموع المآتم  
لمحمد البزم - رُم عظيمًا اذا أردت خلوداً وامتط الشهب في السماء صعوداً  
للدكتور أبي شادي - هكذا هكذا شعوب نيتّم لي علي محمود طه - تألق كالبرق الخاطفة  
للشاعر القروي - أقص التجلد ان العقل منهزم وأهون الخطب ان الدمع منك دم  
لوديع البستاني - قمرٌ - وبنت الفجر - والثقلان  
لحليم دموس - هوى من سما عليائه بعد ان سما  
لابراهيم طوقان - شبيعي الليل وقومي استقبلي  
لصلاح اللبابيدي -

فالموت من جند المليك الاعظم كفكف دموعك واعدُ شجو المآتم  
لصلاح الرفاعي - علم العروبة غار في العلياء  
لعبد المسيح محفوظ : عبقرى الملوك أي فؤاد  
لهفي على الاسلام والعرباء  
اسكتته يد الزمان العادي

هذا فضلاً عن كثير من الاناشيد الشجيرة، وكمثال لها نثبت بعض فقرات من نشيد  
الكشاف المسلم في صيدا: - دافعت بالصدق عن حرمة الحق  
والناس قد كانت في الغرب والشرق

تراك يا فيصل

تراك يا فيصل

البأس قد أبلى في الناس واستولى

في رحبة الوادي عروبة ثكلي

تفديك يا فيصل

تفديك يا فيصل

وقس على ما ذكر ما لا يمكن حصره هنا من الخواج الشعرية والنثرية في شتى  
الاقطار العربية .

وقد تجددت العواطف القومية بموت الملك غازي وبما قيل فيه من مراثٍ تفيض  
بالشعور العربي. فكان مأتمه في العراق مظهراً قومياً شاركت فيه العراق سائر الاقطار  
العربية<sup>(١)</sup> ولسان حالها يردد مع الشاعر المصري علي الجارم

اتينا لنقضي للعروبة حقها يسابق وفدٌ في تلهفه وفدا

فلسنا نبعد عن الصواب اذا قلنا انه على الرغم من اختلاف الاغراض السياسية  
وتشابك المصالح الافليمية وتضارب النزعات الشخصية ظلّ الادب العربي شديد التأثير  
بالرابطه العربية العامة .

\* \* \*

ولا ينكر ان القومية الافليمية لا تزال اقوى العوامل السياسية في البلدان  
العربية وربما ظلت كذلك احقاباً طويلة . وقد كان من الطبيعي ان تتطور فكرة  
الوحدة حتى في الادب نفسه . فان الشعور الادبي اليوم غير ما كان يوم دخل فيصل  
الاول دمشق - كان الشعور يومئذٍ دعوة شديدة لتأسيس المملكة العربية المتحدة  
ذات العرش الواحد ولارجاع المجد العربي القديم . ولكنه لم يبق كذلك بل تطوّر

بتطور الاحوال فتدرّج من الوحدة الى الاتحاد - والاتحاد غير الوحدة - ثم اصبح اخيراً دعوة الى تحالف اخويّ يشدّ ازر كل اقليم ولا يمس استقلاله وعلى هذا نشأت جامعة الدول العربية .

على ان الشعور العربي الادي كما راينا لا يزال يحلم بمجد القومية الكبرى القائم على التعاون العام وذلك منعاً لهذا التفكك الذي لمسنا ضرره الجسم في النزاع العربي الصهيوني والذي يخشى ان يقودهم في المستقبل الى هوة الشقاء

فكما ان افراد الاسرة الواحدة قد يستقلون بعضهم عن بعض وتبقى مع ذلك رابطة الاسرة بينهم، حتى اذا أمت بهم ملّة كانوا يداً واحدة فلا يتسنى لاحد ان يستعبدهم او يستذلهم ، كذلك مصر وسوريا والعراق ولبنان وسائر الدول العربية المستقلة ستسير كل منها في موكب الحضارة والتقدم على طريقها الخاصة دون ان يقضي ذلك على روح التعاون الفعّال بينهم

وانك لتلمس هذا الشعور في كل قطر عربي اليوم فليس بغريب ان تسمع لبنانياً يقول في وطنه<sup>(١)</sup>

عربيّ النجار شدّ عراه باللوائين عبد شمس وهاشم

وآخر يقول في ابناء العرب من قصيدة<sup>(٢)</sup>

وهل هم غير اخوان فيحظوا ويشقوا في مساعيم سوّية  
لنا بلساننا وطن كريم وفي تاريخه صلة قوية

ومثلها كثيرون في لبنان . وها ان الادب المصري قد اخذ يتجه هذا الانحياز داعياً الى الاخاء والاتحاد والوثام في ظلّ العروبة<sup>(٣)</sup>. اما العراق وسوريا فقد كان ادبها ولا يزال رامياً الى تعزيز العروبة والتغني باجادها . وقل كذلك في سائر الاقطار

\* \* \*

(١) من مرثاة بشاره الخوري في فيصل (٢) مجلة الكاوية (بيروت) حزيران ١٩٣٤

(٣) راجع من ذلك : قصيدة لاهم محرم في جريدة النداء (بيروت) ٧ حزيران سنة

١٩٣٣ وقصيدة العروبة لعلي الجارم ، ومفخرة الرشيد للدكتور ابي شادي ، وديوان محمود

ابو الوفا ٨٦٠ وسواها .

تلك هي رسالة الادب القومي اليوم . وقد كاد الزمان يحققها في جامعة الدول العربية وما تهدف اليه من وئام ، واصبح في صدور العرب على اختلاف اقاليمهم وثقافتهم واصولهم ونحلهم امل بنهضة قومية عظيمة تجعل من مجموعة دولهم مع المحافظة على استقلال كل منها جبهة قويّة تجاه المطامع الاستعمارية ونظاماً صالحاً لتحسين احوالهم الاقتصادية والاجتماعية . فهل يتم لهم ذلك على اساس ثابت من الاخلاص والايان والعمل ، ام يظلون على حالهم من الضعف والتأخر بين اقطاعية تذلم وطائفية تعميهم وفوضى اخلاقية وسياسية تشلّهم وتمنعهم عن مجاراة الامم الحيّة الراقية ؟

ذلك ما نترك الجواب عنه للزمان !



تمّ الجزء الاول من هذا الكتاب ويليه الجزء الثاني وهو قسمان .  
يتناول الاول منها النهضة الاجتماعية في العالم العربي وما ينمّس عن  
الحياة الشعبية العصرية من آثار ادبية . ويتناول القسم الثاني النزعات الفنية  
في ادبنا الحديث وللعوامل الفعالة في تطورها .

---

وينتهي الكتاب باستدراكات عامة وفهارس وافية للمراجع والمباحث والاعلام.